الأفكار الفطرية
بين
الدين والفلسفة

تأليف

الدكتورة / ناهد يوسف رزق يوسف
أستاذ مساعد بقسم العقيدة والفلسفة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله ميز الإنسان على غيره، فجعله في أحسن تقويم، قال تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ (١) ، فجاء هذا التقويم شاملاً جميع ما يخص بني الإنسان تفضلاً، من الرحمن الرحيم.

وأشهد أن لا إله إلا الله جعل الإنسان ذا عقل وحكمة ، وكلفه المحافظة عليهما من خلال استعمالهما على النحو الذي يرضيه جل علاه ، إذ واجب العبد شكر المنعم على أنعمه قال تعالى : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ (٢) .

وأشهد أن سيدنا محمد، عبدالله ورسوله، ألهم الله فطرته ما ألهم ، مع أنه الأمي الذي لم يجلس لمعلم ، اللهم صلي وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد :

فإن الله جل علاه خلق العبد، ومنحه من أنواره ما يجعله جديراً بالحياة على الأرض ، وأن هذا الإنسان كلما مارس دوره في الجوانب المختلفة ، وخاض فيها خوض البصير ، فإنه يقف على موضوعات بحثية ما تزال بحاجة إلى المزيد من الدراسة والبحث .

والأفكار الفطرية من الموضوعات التي تضغط على المفكر حتى يتناولها، بحيث يقدم فيها ما تغلب أدلته عنده ، ويحقق أهدافاً ينتظره وذلك يحتاج منهج بحث يقوم عليه من هنا كان موضوع هذه الدراسة الأفكار الفطرية بين الدين والفلسفة " .

---

(١) سورة التين الآية : ٤

(٢) سورة إبراهيم الآية : ٧ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقد قام هذا البحث من خلال ما يلي :

١- المنهج :

لقد حرصت على أن يكون المنهج المستخدم هو التكاملي الذي يجمع بين العرض والتحليل من جهة ، والمقارنة مع المناقشة للأفكار المعروضة من جهة أخرى ، وهذا ما سوف يتضح في ثنايا البحث .

٢- أهداف البحث :

لما كانت النفوس الصحيحة قد فطرها الله تعالى على السعي لما يحقق مصالحها ، وتتوفر معه أهدافها ، فإني قد هدفت من وراء ذلك البحث إلى بيان ما إذا كان الدين الإلهي يستقل بالأفكار الفطرية حديثاً عنها وعرضا لها ، أو أن الفلسفة هي التي تقوم بهذا الدور ، أم أن نصوص الدين هي التي تحمل الأصول التي قامت عليها الأفكار الفطرية ، ثم جاءت الفلسفة المنضبطه لتشرح هذه المسألة .

وقد راقني العديد من جهود مفكري المسلمين الأوائل الذين كان من شواغلهم بيان توافق النقل مع العقل ، وعرفت جهودهم التوفيقية التي غطت مساحات واسعة من الفكر الإنساني .

٣- مكونات البحث :

يتكون هذا البحث من مقدمه وثلاثة فصول ، وخاتمة .

عقدت الفصل الأول : لتحديد مفهوم الأفكار الفطرية وطبيعتها ، فعرفت فيه الأفكار الفطرية ، وبينت طبيعتها ثم موضوعها .

أما الفصل الثاني : فقد جاء حول مثبتي الأفكار الفطرية من النقليين والعقليين ، وحيث أن موضوع الدراسة هو ما يتعلق بالإثبات فقد شغل هذا الفصل الجزء الأكبر من البحث .

ثم جاء الفصل الثالث : حول آراء منكري الأفكار الفطرية وشبههم،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جاء على سبيل القصد والاختصار ، إذ لم يكونوا هم الهدف ، وإنما
من باب أن ما لا يدرك كله لا يترك كله .

أما الخاتمة : فقد جاءت شاملة لأهم النتائج التي أمكنني الوقوف
، وفي النهاية ذكرت المصادر الأساسية التي استفدت منها بطريق
، وبعد ذلك جاء الفهرس التفصيلي للموضوعات ، مع يقيني بأن ما
أي إنسان لا بد أن يكون فيه من القصور بقدر ما في ذات الإنسان ،
أنا فما زلت أردد قول الله تعالى : ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ
وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾[1] .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفصل الأول
مفهوم الأفكار الفعلية وطبيعتها
المبحث الأول : مفهوم الأفكار الفعلية

الفكر (١) من أنعم الله عز وجل على المكلفين ، لأنه يعمل حركة النفس في المعقولات بنوعيها (٢).

وهذا مما يميز بين أفراد بني الإنسان على وجه العموم ، وستظل قاعدة التمايز في المستويات الفكرية قائمة ؛ لأنها من سنن الله الكونية ، وتتمثل في دنيا الناس فروقاً في القدرات العقلية .

في نفس الوقت فإن الله تعالى عندما خلق لبني البشر مادة الفكر وجعلها ملك لكل واحد منهم ، كلفهم استعمالها فيما يصلح للخلافة في الأرض ، ويفيد في أوجه الاستخلاف المشروعة ، بحيث تتحقق لهم مصالح يسعدون بها في دنياهم ، وينالهم الفوز في أخراهم ، ولعل هذا مما أشارت إليه العديد من آيات الذكر الحكيم في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(٣).

---

(١) وردت مادة الكلمة- ف ك ر- في القرآن الكريم في ثماني عشرة آية ، مثل قوله تعالى : ﴿ إنه فكر وقدر فقتل كيف قدر﴾ سورة المدثر : الآية ١٨

(٢) يقول الشيخ السيد الشريف الجرجاني المعقولات نوعان : الأولى : ما يكون بازائه موجودا في الخارج كطبيعة الحيوان والإنسان ، فإنهما يحملان على الموجود الخارجي كقولنا : زيد إنسان والفرس حيوان .

المعقولات الثانية : ما لا يكون بازائه شيء فيه كالنوع والجنس والفصل فإنها لا تحمل على شيء من الموجودات الخارجية ، راجع / السيد الشريف علي بن محمد الجرجاني ، التعريفات ص١٩٧.

٣) سورة الرعد الآية : ٣

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ل الفكر يقوم به العقل[١] وتتأذر فيه قوى النفس ، فقد صار العقل
مسئول عن تنظيم عملية الفكر وترتيب أولويتها طبقاً لما يحقق
المصالح المشتركة ، وفي نفس الوقت لا يغدو العقل غريباً عن واقعة
معاش ، يدل عليه قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[٢] .

علمية تتحدث عن كل منهما على جهة الاستقلال ، بيد أن جمهرة من ذوي
ولما كان الفكر والعقل بهذه المثابة فقد جاءت العديد من الدراسات
الأذواق والمواجيد ومن لهم تطلعات علمية لمتابعة دور كل من العقل
والفكر في مراحله الأولى .

فقد تم الوقوف على دور الفطرة في كل من الفكر والعقل ، وبدا هذا
التساؤل مشروعاً وهو : هل توجد أفكار فطرية يولد المرء مزوداً بها ثـ
يأخذها العقل فينميها ويبلورها ويطور فيها ؟ ، أم أن هذه الأفكار لا وجو
لها ، وأن المرء حينما يولد ، يولد على الفطرة لا على الفكرة .

والفرق بينهما هو الذي دعا إلى دراسة هذا الموضوع .

وحيث أن الألفاظ التي ينطق بها ، يقع بين أغلبها التشارك في اله
النطقية فقد صار من واجبات الباحث ، وضع مصطلح يتفق مع اللف
المستعمل ؛ حتى يكون المنهج منضبطاً ، ومن ثم فسأحاول تقديم تعري
لغوية واصطلاحية لعنوان الدراسة " الأفكار الفطرية " على النحو التالي

---

(١) العقل عند المحققين عبارة عن نور روحاني تدرك به النفس العلوم الضرورية
النظرية ، فالنفس هي المدركة ، والعقل آله في إدراكها ، راجع حاشية خاتمة
شيخ الإسلام الشيخ / إبراهيم الباجوري على متن السلم في فن المنطق للشيخ ال
ص٧ .

(٢) سورة الرعد الآية : ٤

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أولاً: الأفكار في اللغة والاصطلاح:

أ ـ في اللغة:

الأفكار جمع مفرده عند التأنيث فكرة، وعند المصدر فكر، وقد وردت مادة الكلمة ـ ف ـ ك ـ ر ـ في لغة العرب على معان عدة من أبرزها:

١- **إعمال العقل**: تقول العرب: فكر فلان في الأمر المعروض عليه، ومعناه أعمل عقله فيه بكل ما لديه من طاقة، وما يمتلك من وسيلة، لأن إعمال العقل يمثل ملكة[١]، مستخدمة في أمر ما[٢].

٢- **معرفة الحقيقة**: ذكرت مصادر اللغة أن الفكر هو النظر في الشيء والوصول إلى معرفة حقيقته من حيث أن هذا عمل يمثل نشاطاً ذهنياً يوجه ناحية معينة[٣].

٣- **حركة التأمل**: يقول اللغويون فكر فلان في الأمر بمعنى تأمله من نواحيه المختلفة[٤].

مما سلف يمكن القول بأن الفكر هو إعمال العقل في شيء ما وترتيب أجزائه ترتيباً يوصل إلى نتائج، وكلما كان منضبطاً؛ فإن نتائ تجئ صحيحة والغاية المترتبة عليها تكون سليمة، والتعامل الناشئ عن أو المصاحب له يكون مقبولاً.

---

(١) والملكة صفة راسخة في النفس، وتحقيقه أنه تحصل للنفس هيئة بسبب فعل من ا وإذا تكررت ومارستها النفس حتى رسخت تلك الكيفية فيها تصير ملكة. راجع التـ للجرجاني/ ص ٢٢٢ تعليق محمد علي أبو العباس - مكتبة القرآن.

(٢) العلامة مجد الدين الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ج٢ ـ باب الراء، فصل ا ص١١٠.

(٣) المعجم الوجيز ـ مجمع اللغة العربية، باب الفاء، ص٤٧٨.

(٤) العلامة مجد الدين الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ج٢ ـ باب الراء ـ فصل ص١١٠، والإمام محمد بن أبي بكر عبدالقادر الرازي، مختار الصحاح، ص٩

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويعني أن العلاقة بين الفكر والتفكير هي صورة العلاقة بين [illegible] ، فالتفكير توظيف للفكر على الجوانب التي يصح منها [illegible] ، ويدل عليه قول الرسول ﷺ " تفكروا في آلاء الله، ولا تفكروا في [illegible] "(١) .

والفكر بمثابة الملكة ، والتفكير هو توظيف لها ، ولذا إذا حكم على التفكير بالحسن أو القبح، الخير أو الشر ، فإنما يكون حكماً على الوظيفة لا على الملكة .

ب - الفكر في الاصطلاح :

ذهب مفكرو الإسلام إلى تعريف الفكر على الناحية الاصطلاحية بما يتفق مع الموضوعات التي يتناولونها ، ومن هنا تعددت اصطلاحاتهم أو تعريفاتهم الاصطلاحية للفكر ، وسألتقط منها ما يلي :

١- ذهب العلامة الشيخ الرئيس " ابن سينا " إلى أن الفكر ما يكون" عند إجماع الإنسان أن ينتقل من أمور حاضرة في ذهنه متصوره، أو يصدق بها تصديقاً علمياً أو ظنياً أو وضعاً وتسليماً إلى أمور غير حاضرة فيه ، وهذا الانتقال لا يخلو من ترتيب(٢) .

ورغم أن هذا التعريف بالتقسيم(٣) ؛ إلا أنه يعبر عن وجهة نظر الشيخ الرئيس في المسألة.

---

(١) أخرجه أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني ، المعجم الأوسط ، جـ٦ ، ص٢٥٠ والإمام البيهقي في شعب الإيمان ، جـ١ ، ص١٣٦ ، بلفظ قريب وهو " تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في ذات الله " وراجع أيضاً ، الهيثمي، مجمع الزوائد ، جـ١ ، ص٨١ ووجد بلفظه في حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، للإمام أبي نعيم، ص١٩ .

(٢) الشيخ الرئيس ابن سينا ، الإشارات والتنبيهات ، القسم الأول ، ص١١٩-١٢٥ .

(٣) التعاريف المنقسمة تعتبر غير مقبولة عند بعض المناطقة ، وهم يذهبون إلى أن التعار الفاسدة هي مثل التعريف بالمساوي والأخفى ، راجع حاشية الشيخ إبراهيم الباجوري متن السلم في فن المنطق للإمام الأخضري ، ص٤٠

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٢- وذهب العلامة الأصفهاني إلى أن الفكر :" قوة مطرقة للعلم إلى المعلوم (١) ، وما دام الفكر قوة مطرقة فقد اختلف عن كونه حركة اللهم إلا أن يراد بالحركة مفهوم الانطلاق أو بالقوة الصورة التي تبدو عليها من كونها اتجاه إلى ناحية ما .

يدل عليه ما ذهب إليه البعض من أن لفظ الفكر مقلوب كلمة فرك ، فكان المقلوب يمثل حركة وقوة معاً ، ونسب الأصفهاني هذا القلب لبعض الأدباء(٢) ، وقال : " إن الفكر مقلوب عن الفرك، لكن يستعمل الفكر في المعاني، وهو فرك الأمور وبحثها طلبا للحقيقة " (٣) .

٣- ذهب الإمام الفخر الرازي إلى أن الفكر " ترتيب مقدمات علمية أو ظنية ليتوصل بها إلى تحصيل علم أو ظن " (٤) .

وهو هنا يقدم تعريفاً للفكر بالمعنى الأعم ، نظراً لاشتماله في فوائده أو غاياته على تحصيل علم أو ظن بنفس القدر الذي يجيء فيه ترتيب مقدماته ، فهو يربط بين المقدمات والنتائج ، وكأنه يريد أن يقول : إذا تم التفكير واستخدم على ناحية توظيفية ، فإذا كانت مقدماته صحيحة من الناحية العلمية جاءت نتائجه على ذات المستوى ، أما إذا كانت مرتبة على ناحية ظنية ، فإن نتائجها تكون على نمطها .

٤- ذهب العلامة القويسني إلى أن الفكر " حركة النفس في المعقولات بمعنى انتقال النفس من المبادئ إلى المطالب " (٥) .

) العلامة الراغب الأصفهاني ، المفردات في غريب القرآن ، باب الفاء ، ص٣٨٤ .
ولا شك أن الفرك في اللغة يفهم منه الحركة والقوة معاً . راجع المعجم الوجيز - مجم
للغة العربية - باب الفاء / ص ٤٦٩ .
لراغب الأصفهاني ، المفردات في غريب القرآن ، باب الراء ، ص٣٨٤ .
مام الفخر الرازي ، معالم أصول الدين ، ص٢١ .
يخ القويسني ، شرح القويسني على متن السلم في المنطق ، ص٤ ، طبعة الحلب
م ، وحاشية الباجوري على متن السلم للأخضري ، ص٦ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وهذا الانتقال هو عمل المناطقة الذين ينتقلون بحركاته الفكرية من
المقدمات إلى النتائج ، أو المقاطع ، ثم ينتهي أمرهم إلى النتائج التي تمثل
المطلوب بالنسبة لهم.

ويقسم صاحب كشاف اصطلاحات الفنون عن الفلاسفة أن الفكر يطلق
عندهم على ثلاثة معان :

أولها : حركة النفس في المعقولات، بواسطة القوة المتصرفة [١] ؛ لكن
هذه القوة المتصرفة قد تتخذ صور الطلب أو غيره، كما تكون
انتقالة من المطالب إلى المبادئ أو العكس ، المهم أنها حركة تقوم
في النفس على سبيل الانتقال التدريجي [٢] .

ثانيها : حركة النفس في المعقولات مبتدئة [٣] من المطلوب المشعور بوجه
ما، مستغرقة فيها طالبة لمبادية المؤدية إلى أن تحدها وترتبها
فترجع منها إلى المطلوب [٤] .

وهذا التعريف واضح منه وجود حركة واحدة في اتجاهين، إما من
المطالب إلى المبادئ ، أو من المبادئ إلى المطالب ، ومن باب
التجوز تسمى كل منهما حركة في اتجاه معين ، ومن ثم فالتعريف
الثاني الذي نحن بصدده يشمل مجموع الحركتين ، وقد يشمل أكثر
منهما عندما يوضع في الاعتبار الفرض الثالث الذي تقوم عليه

---

١) العلامة التهانوي ، كشاف اصطلاحات الفنون ج٣ ، ص١١٢١ ، والمعجم الفلسفي /
جميل صليبا ، ج٢ ، ص١٥٥ .

٢) وهو هنا يفرق بين ما يقع بالانتقال الدفعي، ويسمى الحركة الحدسية ؛ لأنها انتقال م
المبادئ إلى المطالب دفعة واحدة ، وبين الانتقال التدريجي الذي هو طبيعة الفك
الإنساني.

٣) هذا الابتداء الحركي من المطلوب إلى ما بعده يمثل حالة فارقة عن المعنى الأول، ا
انعقد على الواسطة وهي القوة المتصرفة لاعلى الطريقة المبتدئة .

٤) العلامة التهانوي ، كشاف اصطلاحات الفنون ، ج٣ ، ص١١٢١ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عملية الحصر في الضرورة العقلية .

ثالثها : هو الحركة الأولى من المطالب إلى المبادئ، من غير أن توجد الحركة الثانية معها[١] .

ومعنى هذا أن ذات الإطلاق للفكر لدى الفلاسفة، يختص بحركة واحدة لا بحركتين ، فكأنه شطر المعنى الثاني إلى شطرين أخذ واحداً ، وترك الآخر، بل صار يمثل المعنى الأخص ، أو على أقل تقدير يمكن أن يقال الحدس الذي هو انتقال من المبادئ إلى المطالب دفعة واحدة .

مما سلف بيانه إتضح أن المعاني الثلاثة بينها عموم وخصوص ، إذ الأول هو الأعم مطلقاً ، ثم يأتي الثاني فهو أعم من لاحقه ، أما الأخير فهو الأخص منهما جميعاً .

٦- مفهوم الفكر في الفلسفة الحديثة : يذهب ديكارت إلى أن الفكر هو الصفة التي تخص المرء العاقل وحده ، وتثبت وجوده، ولا تنفصل عنه يقول : " إن الفكر هو الصفة التي تخصني وأنه وحده لا ينفصل عني ، أنا موجود ما دمت أفكر "[٢] .

وهو حينما تحدث عن الفكر قصد به ما يميز الإنسان كفرد عن غيره من باقي البشر بعملية وظيفيه يقوم بها الذهن ؛ لأن الفكر يحتاج إلى ذات مفكرة كما يحتاج إلى موضوع يقع عليه وعقل يجول فيه ، ووظيفه يتم قيامه بها، وهو ما نبه إليه كثير من الفلاسفة المحدثين فيما بعد .

مما سبق يتبين أن الفكر عملية داخل الفرد، تقوم بها النفس الإنسانية، فيما يمكنها القيام به ، وعلى الأخص ما يتعلق بالمعقولات، سواء

---

(١) الدكتور جميل صليبا ، المعجم الفلسفي ، ج٢ ، ص١٥٥ .

(٢) رينيه ديكارت ، التأملات ــ التأمل الثاني (النفس الإنسانية) ، ص٧٣ ، ترجمة الدكتور عثمان أمين ، سلسلة نفائس الفلسفة الغربية ، رقم ٣ ، طبعة مكتبة القاهرة ، ١٩٥٦م .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لما التفكير فإنه يمثل الوظيفة التي يقوم بها الذهن، بدعم قوي من
ربط، أي الموضوعات التي يرتبها الفكر ، ومن ثم اتضح أن هناك بعض
الفرق بين الفكر وهو الوعاء ، وبين التفكير وهو المنهج المستخدم في
عملية تنظيم الفكر نفسه .

ثانياً: كلمة الفطرة في اللغة والاصطلاح:

الفطرة لفظ قرآني ورد في قوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾[1] .

وهي كذلك لفظ نبوي ورد في الحديث الشريف مثل قول الرسول ﷺ : " ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ؟ "[2].

والفطرة من الألفاظ العربية التي تحدث عنها العرب ، ووردت في اصطلاحات الكثيرين مما يجعل البحث بحاجة إلى تقديم نبذه لغوية واصطلاحية بشأنها تجيء فيما يلي :

---

(١) سورة الروم الآية : ٣٠

(٢) صحيح البخاري ــ كتاب الجنائز ، باب إذا أسلم الصبي فمات ، هل يصلي عليه ، ص٤٥٦ ، وصحيح مسلم ــ كتاب القدر ــ باب معنى كل مولود يولد على الفطرة ص٢٠٤٨ ، وهذا الحديث رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن الرسول ﷺ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أ ـ في اللغـــة :

وردت مادة الكلمة ـ ف ـ ط ـ ر في القرآن الكريم في العديـ
من الآيات[١] ، وكذلك في لغة العرب على العديد من المعان منها :

١ـ الخلق المبتدأ :

تقول العرب هذا الشيء قد فطر ، ومعناه أنه قد خلق خلقا مبتـدأ[٢]
ولذا يستدل على هذا المعنى بقوله تعالى :﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَ
السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [٣] .

٢- الصورة الأولى :

يقول أهل اللغة : إن الفطرة هي الصورة التي يكـــون عليهـــا ك
موجود، في أول خلقته وكل مولود في رحم أمه ، من حيث إنه لا تكو
صورة سابقة على ما هو عليه[٤] .

٣- الطبيعة السليمة :

يقولون هذه فطرة فلان ، يقصدون بها الطبيعة التي خلق علي
ولم تقع لها شائبة من عيب ؛ لأنه على شكلها كون ، ومن خلال صـ
قام ، فهي المعبر عنه ، والمؤكد له .

٤- الجبلة المهيئة في الإنسان لقبول الدين [٥] .

---

(١) وردت مادة الكلمة في عشرين آية من القرآن الكريم ، راجع المعجم المفهـرس
القرآن الكريم .

(٢) العلامة مجد الدين الفيروز أبادي ، القاموس المحيط ، ج٢ ، فصل الفاء ، باب
ص١٠٩ .

(٣) سورة الأنعام الآية : ٧٩

(٤) المعجم الوجيز ، مجمع اللغة العربية ، باب الفاء ، ص٤٧٥ .

(٥) الفيروز آبادي ، القاموس المحيط ، ج٢ ، فصل الفاء ، باب الـــراء ، ص٩ .
الإمام محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي ، مختار الصحاح ، باب الفاء ،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

و التمايز : ويعنون به ما يقع لكل فرد على خصوصه ، ومما يؤكد هذا
تعني ما روى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في قصة الرجلين
تنازعا فيها ملكية : " بئر " فقال أحدهما : أنا فطرتها وسعلاه ابتداها
اختلفا في
(١).

فكان ابن عباس يقول لم أدر معنى فاطر السماوات حتى أتاني
أعرابيان يختصمان في بئر فقال أحدهما : أنا فطرتها ، فكان حفره لها يمثل
الامتياز الخاص به ، وفاطر السماوات والأرض هو المتميز بخلقه وعلمه
وقدرته ، وما له من الجلال والجمال والكمال والإكرام .

ومما سبق يمكن القول بأن الفطرة هي ما يقع ابتداء على أتم
الوجوه، بحيث يكون خاليا من الشوائب ، ويقع له الامتياز عما سواه .

والفطرى هو الذي يعيش على الفطرة، التي خلقه الله تعالى عليها،
خاليا من الشوائب المعيبة ويمتاز بها عن غيره بما يخصه .

ب ـ الفطرة في الاصطلاح :

ذهب المصطلحون في تعريف الفطرة مذاهب، بعضها جاء من
ناحية اللغة، ففهمت على أنها الجبلة، أو الخلقة، القابلة للدين .

يقول الجرجاني : " الفطرة هي الجبلة المتهيئة لقبول الدين " (٢) .
ومن ثم فكل ما يتعلق بالجبلة المتهيئة لقبول الدين من القوى والملكات، أو
يخضع لها، ويكون قابلا للدين ، إنما تتمثل فيه الفطرة ، ومستند صاحب
التعريفات هو ظاهر قوله تعالى :﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾(٣)
وإلى نفس المعنى ذهب القاضي عياض ، حيث قال : " إن الفطـ

---

(١) الفيروز أبادي ، القاموس المحيط ، ج٢ ، فصل الفاء ـ باب الراء ، ص١٠٩ .
(٢) العلامة السيد الشريف الجرجاني ، التعريفات ، ص١٤٧.
(٣) سورة الروم الآية : ٣٠

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هي الدين الذي فطر الله عليه الخلق ..[١]

وذهب آخرون إلى أنها الخلقة السوية، القابلة للتوحيد على الخصوص ، يقول الزمخشري : " الفطرة هي الخلقة، على معنى أن الله تعالى خلق البشر قابلين للتوحيد دين الإسلام، غير نافرين عنه، ولا منكرين له ..[٢]

وصاحب الكشاف حاول تقديم مبررات لهذا التعريف من الناحية الاصطلاحية، بعضها كان عماده فيه اللغة ، وبعضها الآخر كان من النصوص الشرعية، من مثل قوله تعالى في حديثه القدسي الذي رواه الإمام مسلم عن رب العزة : إني خلقت عبادي حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا ...[٣]

وقد فهم البعض أن الفطرة هي دين الإسلام على وجه العموم معتمدين بظواهر نصوص شرعية ، والفطرى هو الملتزم بدين الله جل شأنه .

يقول العلامة ابن حزم : " إن الناس كلهم مولودون على الإسلام[٤] ، ويقول : هذا تأويل قوله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾[٥] .

بينما خالف شيخ الإسلام ابن القيم هذا الاتجاه وقال : " إن معنى الفطرة هو ابتداء الخلقة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فاطر السموات والأرض ﴾

---

(١) القاضي أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض ، مشارق الأنوار ، مادفطر ، ج٢ ، ص١٥٦ ، المكتبة العتيقة .

(٢) العلامة الزمخشري ، الكشاف ، ج٣ ، ص٤٨٤ .

(٣) صحيح الأحاديث القدسية ، ما حكاه النبي عن رب البرية ، كتاب بدء الخلق ص٥٧ ، تحقيق العلامة محمد ناصر الدين الألباني ، مركز تحقيق النصوص .

(٤) العلامة علي بن أحمد بن حزم الأندلسي ، الأحكام ، ج٥ ، ص١٠٥ ، دار الحديث القاهرة ، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ .

(٥) سورة الأحزاب الآية: ٧٢ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

[illegible]

(الروم : ٣٠) .

هذا وقد كان للفلاسفة المسلمين إسهامات في تقديم مفهوم للفطرة ، فقد ذهب المعلم الثاني " أبو نصر الفارابي " إلى القول بأن الفطرة هي التي لا يقع فيها تماذج أو تآلف ، إذ كل فرد يمتاز بفطرة خاصة ، ويؤكد هذا المعنى في قوله : " لو خليت وسويت طبائعها، لم يقع منها ائتلاف البتة، لبعد ما بينها من المشاكلة ، وتفاوت ما يشتمل عليها من المباينة ، ومع اجتماعها قسراً فلا تؤمن منافرة يسيرة أو كثيرة، يكون من أجلها عدم الاعتدال في الخلقة ، وكل فطرة قلت المنافرة في عناصرها كانت إلى الاعتدال أقرب ، وكلما كثرت المنافرة كانت من الاعتدال أبعد، حتى يجري الخلق على نسب متساوية من التنافر والاعتدال، بتنافر الطباع واعتدالها"[٣]

---

(١) راجع العلامة شيخ الإسلام ابن قيم الجوزية ، شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ، ص٥٣٠ ، تحقيق سيد عمران ، دكتور السيد محمد سيد ، دار الحديث القاهرة .

(٢) العلامة أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي ، فتح الباري ، ج١٣ ص٢٤٨ ، تحقيق محب الدين الخطيب ، دار المعرفة ، بيروت .

(٣) أبو نصر الفارابي ، فصول منتزعة ، ص١٠٠ ، تحقيق د. فوزي متري نجار ، الطبعة الثانية ، دار المشرق ــ بيروت ، لبنان .

والفطرة عند الفارابي استعداد طبيعي للأعمال الإنسانية ، ومن ثم
الفارابي ينظر إلى كل إنسان على حده، ويعتبر الفطرة مسن
اسعيرة لكل فرد ، فليست قاعدة عامة معيارية يخضع عليها الناس ، ولكن
هي موجودة لدى كل فرد استقلالاً .

أما ابن سينا فقد ذهب إلى أن الفطرة هي ما يقع عليها الخلق
في كل فرد، حتى لو كان ذلك بعيدا عن أثر الأسرة والمجتمع فيقول :
ومعنى الفطرة أن يتوهم الإنسان نفسه حصل في الدنيا دفعة ، وهو
العقل، لكنه لم يسمع رأيا ، ولم يعتقد مذهباً ، ولم يعاشر أمة ، ولم
سياسه لكنه شاهد المحسوسات ، وأخذ منها الخيالات ، ثم يعرض على
ذهنه شيئاً ، ويشكك فيه ، فإن أمكنه الشك ، فالفطرة لا تشهد به ، وإن لم
يمكنه الشك فهو ما توجبه الفطرة ، وليس كل ما توجبه فطرة الإنسان
بصادق، بل كثير منها كاذب، إنما الصادق فطرة القوة التي تسمى عقلاً[1].

ويعتبر ابن سينا الفطرة الإنسانية معبره عن فكر صاحبها ، ويؤكد
أن الفطرة تقبل الأشياء الصحيحة وترفض ما يقع في دائرة الظنون
والشكوك والأوهام ، ويؤكد أن الفطرة الإنسانية قد توجب أشياء فتكون
مقبولة عقلا ، وهنا تكون تلك الفطرة صادقة ، وقد يرد عليها فيما بعد
الكثير من الخيالات والظنون ، فتكون كاذبة ، وكذبها ليس لذاتها ، وإنما
للوارد عليها .

ومن هنا تبين أن الفطرة هي ما يخلق المرء عليه، باعتبار الظواهر
المادية والقوى الوجدانية، والملكات العقلية ، والاتجاهات القلبية، التي لم
يقع لأي منها ما يشينها، أو يغير من طبيعتها .

---

١) ابن سينا ، النجاة ، ص٩٩ ــ تحقيق الدكتور ماجد فخري ، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ ــ ١٩٨٥م ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويذهب الدكتور عثمان أمين إلى أن الأفكار الفطرية لدى ديكارت هي أحوال ذهنية موجودة في الذهن قبل أية تجربة، وأن وجودها يكون بالقوة ، فإذا عرضت مناسبة من مناسبات التجربة خرجت إلى العقل الواعي أو الوجداني ، ومعنى كونها مفطورة أنها غريزية في النفس ، وليست مستفادة من الحواس ، ومرجعها إلى ما فينا من قوة على الفكر ، وتمتاز بوضوحها وبساطتها وشمولها "(٣) .

---

(١) وذكر الجرجاني أن المركبات خمسة : مركب إسنادي كقام زيد ، ومركب إضافي كغلا زيد، ومركب تعدادي كخمسة عشر ، ومركب مزجي ومركب صوتي كبعلبك، وسيبويه. راجع التعريفات للجرجاني فصل الراء باب الميم / ص ٢٠٥ طبعة ٢٠٠٣م – مكتب القرآن . ضبط نصوصها وعلق عليها – محمد علي أبو العباس .

(٢) أبو نصر الفارابي ، تحصيل السعادة ، ص٤٩ ، تحقيق د. جعفر آل ياسين ، دار الأن للطباعة والنشر والتوزيع ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م .

(٣) الدكتور عثمان أمين / ديكارت ، التأملات في الفلسفة الأولى ، ص٩٩ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويسترشد في ذلك المعنى بما ذهب إليه ديكارت نفسه من تقسيمه الأفكار إلى ثلاثة أقسام " بعضها مفطور في ، وبعضها غريب على مستمد من الخارج ، وبعضها الآخر وليد صنعتي واختراعي" (١) .

وإذا كان حديثنا عن الأفكار الفطرية هو الذي يهمنا، فلا بد من الإشارة إلى كل من الأفكار العارضة(٢) ، التي تعرف بأنها مستمدة من الخارج كفكرة اللون، والصوت والحرارة والرائحة والطعم، وهي أفكار غامضة مبهمة ، وكذلك الأفكار المخترعة وهي التي نركبها من الأفكار العارضة، كصورة حيوان نصفه فرس، ونصفه إنسان ، وما شابه ذلك (٣) .

أما ليبنتز فإنه يعرفها بأنها : " الحقائق الضرورية والأبدية، فهي المبادئ الأولى للمعرفة العقلية "(٤) .

ومن ثم فهذه الحقائق الضرورية ليست مستحدثة ، وإنما هي موجودة في ذات الفرد كما أنها تمثل جملة المبادئ الأولى للمعرفة العقلية لقيامها في المفاهيم .

وقد نبه إلى ذلك صاحب المعجم الفلسفي الذي انتهى إلى أن ليبنتز قد شبه الأفكار الفطرية بالعروق التي توجد في حجر المرمر فيقول : " إنها عبارة عن استعدادات في النفس شبيهة بالعروق التي نجدها في حجر المرمر ، فهي تجعل هذا الحجر صالحا لقبول صورة معينة ، بحيث يمكنك أن تقول إن هذه الصورة فطرية له ، وهي لا تنتقل من القوة إلى الفعل إلا

---

(١) ديكارت ، التأملات ، التأمل الثالث ، ص٩٩ .

(٢) هي بخلاف الأفكار الأساسية التي تتسم بالوضوح والكمال داخل النفس الإنسانية، وتعرف بالأفكار الفطرية .

(٣) راجع في تعريف الأفكار العارضة والمخترعة تعليقات الدكتور عثمان أمين على التأملات لديكارت ، ص٩٩.

(٤) جوتفريد فيلهلم ليبنتز ، المونادولوجيا ، ص١٤١ ، ترجمة د عبدالغفار مكاوي ، طبعة دار الثقافة بالقاهرة ،١٩٧٨م .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والتجربة أي بالخبرة والعمل[١] .

وهذا التعريف من ليبنتز هو عبارة عن عملية توفيق بين القائلين بالفطرة والقائلين بالتجربة (الرافضين للأفكار الفطرية) .

يقول الدكتور " إبراهيم مدكور " : " يأخذ ليبنتز بالفطرة ليفسر الحقائق وعمومها ، وبالتجربة ليبين وظائف الحواس وأثرها ، ولولا الفطرة ما أفدنا من أية صورة حسية ، ولولا التجربة لبقيت الاستعدادات الكامنة في حال سلبية، أو شبه عدمية " [٢] .

ويبدو لي أن السير خلف التعريف للأفكار الفطرية يمكن أن يستغرق وقتاً طويلاً ، ويقف المرء على آراء متعددة ، لكنها في مجملها تحدد طريقين :

الأول : طريق الذين يقرون بوجودها، ويتساهمون في بيانها ، ويحدث لهم التشارك في بحث موضوعاتها ، وهؤلاء لهم أفكار كثيرة، وتجمعهم مدارس عديدة، وترجح اتجاهاتهم أدلة متميزة.

الثاني : طريق الرافضين لوجود أفكار فطرية على النحو الذي قال به السابقون ، فكان هذا الموقف يعبر عن صورة مضادة، لمواقف متباينة ، بحيث إذا تبنى فريق رأياً، سعى الآخر لمواجهته لا لمؤازرته ، وكأنهما فرسا رهان، كل منهما يريد سبق الآخر ، وليس لديه استعداد لأن يسير مع صديقه نفس الطريق .

والواضح أن خلافات المثبتين والمنكرين للأفكار الفطرية، سوف تبدوا معالمه عندما يقع التناول ، وهذا ما سوف أضعه في الحسبان ، وعلى الله قصد السبيل .

---

(١) جميل صليبا ، المعجم الفلسفي ، ص١٥١ .

(٢) الدكتور إبراهيم بيومي مدكور ، والأستاذ يوسف كرم ، دروس في تاريخ الفلس ص١٦١ ، المطبعة الأميرية بالقاهرة ١٩٤٩م .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المبحث الثاني

طبيعة الأفكار الفطرية وموضوعها

من الواضح أن القائلين بوجود الأفكار الفطرية، لم يكونوا قاصدين التعبث، أو إضاعة الوقت ، وإنما بات هدفهم واضحاً ، إذ في إثباتهم لها تأكيد على وجود الله لدى المتدينين ، وصدق الأفكار وصحتها، بالنسبة للفلاسفة المحدثين .

ومن هنا برزت طبيعة الأفكار الفطرية في مظاهر يمكن الرجوع إليها، على النحو التالي:

أولاً : أنها قَبْلية :

يتفق في هذه الطبيعة جميع القائلين بأن الأفكار الفطرية سابقة على وجود الإنسان وهي مرحلة وجود الإنسان في عالم الذر ، وبالتالي فهي قبلية لكل معرفة لاحقة ، ويكون موضوعها هو ذات الله تعالى بما له من جلال وجمال وكمال وإكرام .

ويستدل عليه بظاهر قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾[1] .

وقد فهم الكثيرون من أهل الإسلام، أن هذه الآية دالة على وجود معارف فطرية قبلية أولية ، موضوعها هو الله تعالى والإقرار له بالوجود، والوحدانية، وسائر الصفات الإلهية .

يقول صاحب " تفسير المنار " في معنى هذه الآية : إنها تدل على " ما أخذه الله من ميثاق الفطرة والعقل على البشر عامة ، إذ استخرج من بني آدم ذريتهم بطنا بعد بطن ، فخلقهم الله على فطرة الإسلام ، وأودع في

---

(١) سورة الأعراف الآية : ١٧٢

... جوهرة الإيمان، وجعل من مدارك عقولهم الضرورية أن كل فعل لا ... من فاعل، وكل حادث لا بد له من محدث ، وأن فوق العوالم الممكنة ... على صفة الأسباب والمسببات ، والعلل والمعلولات ، سلطانا أعلى ... جميع الكائنات ، هو الأول والأخر هو المستحق للعبادة وحده ." (١)

... وقد جمع الكثير من المفسرين بين هذه الآية وقوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾(٢) . ثم انتهوا إلى أن ... للدين الفطرية هو الدين في مجمله باعتبار الأسس التي قام عليها ... الأفكار الفطرية أبانت عنه مؤلفاتهم في علم التفسير، أثناء تناولهم ... في ذلك مجهود ... الآيات القرآنية، ومن بين هؤلاء الإمام ابن كثير في تفسيره .

... حيث قال : " يخبرنا تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم، ... على أنفسهم، أن الله ربهم ومليكهم، وأنه لا إله إلا هو، كما أنه ... فطرهم على ذلك، وجبلهم عليه ، قال تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ... حَنِيفًا ... ﴾(٣)، ومن ثم يمكن القول بأن هذه الأفكار قبلية في طبيعتها، شاملة ... موضوعها، متى تعلق بما يجب لله تعالى بصفة خاصة ، والدين الإلهي ... وجه العموم .

ويمكن النظر إلى موضوعها على ناحية أخرى ، لكن قاعدة القبلية ... مشتركة ، وهذا ما يميزها عن الأفكار البعدية تمييزاً واضحاً ، لأن ... كسبية، وليست فطرية أبداً .

وذهب الفلاسفة المحدثون إلى أن الأفكار الفطرية قبلية من حيث ... وكان أكثرهم تعبيراً عن مسألة القبلية هو ديكارت، الذي قال : " فمن ... الأفكار ما هو مفطور في نفسي ، كفكرة الوجود والحقيقة " .

---

(١) الامام السيد محمد رشيد رضا ، تفسير المنار ، ج٩ ، ص٣٢٥-٣٢٦ ، العدد ٤٧ ... الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(٢) سورة الروم الآية : ٣٠

(٣) الإمام الجليل الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل ابن كثير ، تفسير القرآن العظيم ... ج٢، ص٢٥١ ، مركز الكتاب العلمي ، المكتبة القيمة .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويقول أيضاً : " هناك بالضرورة أفكار " أولى " تعتمد وجودها الذهني من نماذج، أو أصول فعلية ، وهذه الأفكار الأولى أشبه بصور لهذه النماذج (١).

ثم تابع "ديكارت" "ليبنتز" حيث سادت فكرة القبلية عنده على نحو ما ، وقد أقر ذلك بوضوح حين قال إن وجود الله تعالى معرفة قبلية " ولدينا وجوده عن طريق واقعية الحقائق الأبدية " (٢) .

وكذلك صنع " عمانويل كانت" بفكرة القبلية، حيث تبناها وأكد على وجود حقائق أولانيه تقوم في صلبها على فكرة الجوانية، التي تخالف في طبيعتها الفلسفة البرانية(٣) .

يقول كانت : " يجب أن يكون تصورنا للمكان موجوداً وقائماً قبليا ، ولا يصح أن نستخلصه من الخبرة ، ولا من علاقات الظاهرات الخارجية ، إذ أن الخبرة الخارجية لا تكون ممكنة إلا بواسطة تصور المكان أولاً " (٤).

ويقول عن الزمان والمكان : " هما الأساس القبلي، الذي تقوم عليه جميع العيانات الأخرى ، وبذلك لا يمكن أبدا فصلها عنه " (٥) .

أما موضوعها : فهو لديهم يقوم في جملة الحقائق الأبدية، من غير

---

(١) رينيه ديكارت ، التأملات في الفلسفة الأولى ، ص١١٧-١٢١ ، ترجمة الدكتور عثمان أمين .

(٢) ليبنتز ، المونادولوجيا ، ص١٤٩ ، ترجمة د/ عبد الغفار مكاوي .

(٣) فكرة البرانية والجوانية من الأفكار الفلسفية التي نالت عناية كثير من الفلاسفة المحدثين حتى صارت لدى بعضهم تمثل مسألة معرفية ، راجع الدكتور عثمان أمين الجوانية حيث تعرض لهذه المسائل في كثير من العرض والتحليل .

(٤) عمانويل كنت ، نقد العقل المجرد ، ص٧٠ ، ترجمة أحمد الشيباني ، دار اليقظة العربية للتأليف والنشر ، بيروت ١٩٦٥م .

(٥) كانت ، مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة يمكن أن تصير علما ، ص٧٩ ، ترجمة دكتوره نازلي حسين ، مراجعة د عبدالرحمن بدوي ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، ١٣٨٧هـ ١٩٦٧م .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

... أنهم ينظرون للحقائق الأبدية نظرة تستمد وجودها من وجود ... وهو يعتبر الفلاسفة في إتيانه على المبادئ الذهنية ، ومع أن في ... دوراً خفياً (١)، إلا أنهم يعتبرون به، ومن ثم تصير فكرة الحقائق ... بسيطة ، وهذا ما يؤكد أن موضوع الأفكار الفطرية عند هؤلاء ... - متى ارتبط بطبيعتها القبلية- فقد انحصر كل منهما في الآخر، ... انحصراً معرفياً.

ثانياً: البساطة :

يذهب الكثير من الدارسين إلى أن الأفكار الفطرية بسيطة في طبيعتها، وقد تكون بسيطة في موضوعها ، ولا يراد بالبساطة ما يقابل الخفة أو الثقل ، ولا ما يرادف المستوى ، وإنما يراد بالبسائط ما يمكن الوقوف عليه في سهولة ويسر، وهو المجردات ، ولذا جاءت الأفكار الفطرية بسيطة (لدى هؤلاء) في طبيعتها ، بسيطة في استقلال موضوعها ؛ حيث إن هذا الموضوع قد ينحصر في معرفة الله ، فتكون البساطة في الموضوع كشأن البساطة في الطبيعة ، ويعتبر ليبنتز من أكثر الذين تبنوا هذه الفكرة حيث يقول : " ينفرد الله أو الكائن الضروري بأنه يحتم بالضرورة أن يوجد إذا كان وجوده ممكناً " (٢).

---

(١) الدور أنواع منه : الدور الصريح ، والدور المضمر ، ومنه الدور الصحيح والدور الفاسد ، لمزيد من التفاصيل يمكن مراجعة كتاب المواقف وشرحه أثناء الحديث عن الموقف الخامس " إثبات الصانع "م٤/ ج٨ ص ١٥ وما بعدها .

(٢) يذهب مفكرو الإسلام إلى أن وجود الله تعالى واجب وليس ممكنا ، وبناء عليه يثبت وجود ما سواه ، وقد تعرض العلامة السيد الشريف الجرجاني إلى هذا الجانب عند حديثه عن أدلة إثبات الصانع ومتابعته لكل من دليلي الحدوث والإمكان ، فقام في أصل دليل الحدوث على الاحتياج للصانع الذي لا يتغير ، وفي أصل دليل الإمكان على المرجح الذي يرجح الوجود على العدم ، راجع العلامة السيد الشريف الجرجاني ، شرح المواقف م٤/ج٧ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ولما لم يكن هناك شيء يحول دون إمكان وجود ما لا يتضمن وجوداً ولا نفيا، ولا يحتوي تبعا لذلك على أي تناقض فإن هذا وحده يكفي لمعرفة وجود الله، وقد أثبتنا وجوده عن طريق واقعية الحقائق الأبدية "(١).

و" عمانوئل كانت " يجمع بين فكرتي البساطة والقبلية في الزمان والمكان بقوله : " وعلى وجه التدقيق لما كان هذان المعنيان عبارة عن عيانين مجردين قبليين ، فذلك ما يؤكد أنهما صورتان بسيطتان للقوة الحساسة، ينبغي أن تكونا سابقتين على كل عيان تجريبي " (٢).

ومن هنا يظهر أن هناك علاقة ربطية بين بساطة الأفكار الفطرية من حيث طبيعتها وموضوعها أيضاً ، وهذا في حد ذاته كاف للتأكيد على أن الفلاسفة المحدثين الذين أثبتوا الأفكار الفطرية كان لهم وجود على الساحة الفكرية، وسواء اتفقوا مع غيرهم فيها ــ طبيعة الأفكار الفطرية وموضوعها ــ أم لم يتفقوا فإن الذي يعنينا هو وجود القاسم المشترك واتفاقهم حول بساطة الأفكار الفطرية .

ثالثاً : المظاهر المختلفة :

لما كانت طبيعة الأفكار الفطرية متمثلة في قوى أو استعدادات، فقد صارت بحاجة إلى صور معبرة، ومظاهر تبلغ بها حد الإبانة والإفصاح، وذلك من شأنه التأكيد على قابليتها كقوى أو استعدادات للتحول عن تلك الحقيقة، إلى مظاهر قد تكون حسية أو عقلية أو جامعة بينهما .

وإذا بلغت الأفكار الفطرية هذا المبلغ في طبيعتها فقد بات التنوع في موضوعها قائماً ، ومن هنا يمكن القول بأن موضوع الأفكار الفطرية يصح أن يكون مركباً ، كما يصح أن يكون بسيطاً ؛ لأن المظاهر متعددة

---

(١) ليبنتز ، المونادولوجيا ، ص١٤٩ .

(٢) كانت ، مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة يمكن أن تصير علما ، ص٧٩ ، ترجمة دكتوره نازلي إسماعيل حسين .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والاستعدادات متكاثرة ، فإذا نظرنا إلى كل مظهر باعتباره قائماً في قوة من القوى ، أو استعداد من الاستعدادات، تبين أن الموضوع هو الآخر متكاثر، وليس بسيطاً .

كما يمكن القول بأن هناك علاقة تكاملية أو ارتباطية شرطية على سبيل الاتصال أو الانفصال بين طبيعة الأفكار الفطرية وموضوعها ، فإذا كانت طبيعتها بسيطة أمكن أن يكون موضوعها بسيطا بحيث لا يشمل إلا الله عند أهل الإسلام ، أو الحقائق الأبدية عند الفلاسفة المحدثين ، وإذا اتسعت الطبيعة تحددت أجزاء الموضوع بحيث يكون مركباً .

ويبدو لي أن كلا من البساطة والتركيب يمكن أن يردا في أية مرحلة من مراحل الحديث عن الأفكار الفطرية ، ابتداء من القبلية، وانتهاء بالحقائق الأبدية ، ولكن على أكثر من جهة ، فلا تكون البساطة والتركيب معاً ؛ لكن يمكن أن يكون هناك بساطة في الطبيعة والموضوع .

وهذا مما كشف عنه مفكرو الإسلام الأوائل ، وكان الإمام الغزالي قد تعرض للأفكار الفطرية تعرضا خفيفاً في كتابه إحياء علوم الدين ، حيث بين أنها منحة إلهية ؛ لأنها ترد على العقل النوراني، الذي هو في ذاته منحة من الله، فيجتمع للعبد منحتان إحداهما : أفكار فطرية في طبيعتها ، ثانيهما : أنها متعددة في موضوعها .

يقول الإمام الغزالي : " كل قلب فهو بالفطرة صالح لمعرفة الحقائق ؛ لأنه أمر رباني شريف، فارق سائر جواهر العالم بهذه الخاصية والشرف ، وإليه الإشارة بقوله عز وجل : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولا ﴾ (١) . وقلب كل آدمي مستعد لحمل الأمانة ، ومطيق لها في الأصل ، ولكن يثبطه عن النهوض بأعبائها، والوصول إلى تحقيقها أسباب

---

(١) سورة الأحزاب الآية :٧٢ .

ـ تحجبه عن ذلك ـ ولذلك قال ﷺ : " كل مولود يولد على الفطرة "(١)

ويمكن أن يرتد هذا الموضوع إلى أصله في بساطته الأولى، كما أشار إلى ذلك أيضاً في الرسالة اللدنية حيث قال " النفس الناطقة الإنسانية أهل لإشراق الكلية عليها ، ومستعدة لقبول الصور المعقولة عنها، بالنظر طهارتها وصفائها "(٢) .

أضف إلى ما سبق أن الأفكار الفطرية في طبيعتها، ذات وضع فيه المرونة من كل ناحية، وهو الذي حدا بمفكري المسلمين ، لصياغة العديد من الآراء الأخلاقية والسياسية حولها .

يستدل على ذلك بما ذهب إليه " ابن مسكويه " من أن الأخلاق فطرية بمعنى " إنا مطبوعون على قبول الخلق "(٣) .

وبذلك جعل الخلق قابلا للتهذيب والتأديب(٤) من حيث المكتسبات وما يتعلق بالموضوعات الخلقية ، ويظهر ذلك من خلال تقسيمه الخلق إلى قسمين فقال : " منها ما يكون طبيعيا من أصل المزاج كالإنسان الذي يحركه أدنى شئ نحو الغضب ، ويهيج من أقل سبب (٥) .

ومنها ما يكون مستفاداً بالعادة والتدريب ، وربما كان مبدأه بالروية

---

(١) الإمام الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج٣ ، ص٢١ ، تحقيق / محمد عبدالملك الزغبي ، دار المنار ١٩٩٧م .

(٢) الإمام الغزالي ، الرسالة اللدنية (مجموعة رسائل الإمام الغزالي) ، ص٢٥١ ، تحقيق إبراهيم أمين محمد ، المكتبة التوفيقية .

(٣) العلامة أبو علي أحمد بن محمد بن مسكويه الخازن الرازي ، تهذيب الأخلاق ، وتطهير الأعراق ، ص١٩ .

(٤) حتى يكون للمواعظ والإرشاد عمل في نفس الإنسان ، وقد مثل لذلك بأخلاق الصبيان واستعدادهم لقبول الأدب أو نفورهم عنه .

(٥) وبهذا يتساوى مع القلق الجبلي الذي قال به الصوفية ، وانتهى أيضاً إليه علماء النفس .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثم يستمر عليه أولاً فأولا حتى يصير ملكة وخلقا "(١) .

ويظهر عماية الاستعداد هذه عند الإمام الغزالي في تعريفه للخلق ؛ حيث قال : " الخلق عبارة عن هيئة في النفس راسخة، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر، من غير حاجة إلى فكر وروية(٢) .

فالهيئة هنا التي تستعد النفس بها لأن يصدر عنها، هي مصدر الأفكار الفطرية المركوزة في النفس الإنسانية ، وبالرغم من أن الإمام الغزالي قد اشتهر بآرائه الكلامية والصوفية ، فإنه ينال نفس المرتبة في المجال الأخلاقي أيضاً ؛ لأنه كان من العلماء الموسوعيين الذين يمكن أن يستفاد بآرائهم في أغلب المعارف الإنسانية .

ثم جاء الفخر الرازي فأكد على هذا الجانب ، وفي نهاية المطاف جاء من تأثروا بهم فساروا على هذا النهج ، ثم طوروا فيه، كالحال مع ديكارت الذي شك في كل شيء إلا أمرين : أحدهما : فطرية وجود الله ؛ لأنها من عند الله جاءت، وهي أصل الفطرة ، ثانيهما : البراهين الرياضية ؛ لأنها منتج عقلي سليم لا يناقض البديهيات ، وإنما يقوم عليها .

يقول ديكارت : " إن الأشياء التي نتصورها جد واضحة، وجد متمايزة هي جميعا حقيقية ، هذا الذي جعلته أولا قاعدة ليس ثابتاً ، إلا لأن الله كائن أو موجود ، وأنه ذات كاملة ، وأن كل ما فينا مصدر عنه ، ويتبع ذلك أن صورنا الذهنية، ومعارفنا لما كانت موجودات خارجية صادرة عن الله فهي بما هي به واضحة متمايزة "(٣) .

ومن هنا أمكن القول بأن الأفكار الفطرية لها وجود ثابت داخل الفكر الإنساني ، والاستدلال عليه يمكن أن يتم من خلال مظاهر وصور عديدة .

---

(١) ابن مسكويه ، تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق ، ص١٨ .

(٢) الإمام الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج ٣ ، ص٧٨ .

(٣) رينيه ديكارت ، مقال عن المنهج ، ص٢٣٠ ، ترجمة محمود محمد الخضيري ، مراج
وتقديم الدكتور / محمد مصطفى حلمي .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بل ذهب كثير من أهل الإسلام الذين علـوا بالجانب الوجـداني
الصوفي إلى أن هذه المعارف الفطرية قائمة في الروح الحيواني مثل قيامه
في الروح العلوى النوراني ، وكانت أشعارهم وحكمهم تجـرى على هـذا
الجانب عرضاً وتقريراً ثم تأكيدا وتوثيقاً .

حيث ذهب أغلبهم إلى أن الأفكار الفطرية تبقى مع الـنفس، حتـى
تقوم عملية الكسب ، حينئذ تبقى الأولى على حالها .

يقول الشيخ " شاهاور الرازي " ٥٦٤هـ ٦٥٤هـ " : " إن الروح الإنساني
خلق في أحسن تقويم ، وهو استعداد قبول الفيض الإلهي بلا واسطة، وانه
متفرد بهذه الرتبة من بين سائر المخلوقات ، وذلك لأنه أول شيء تعلق به
أمر " كن " في الإيجاد بلا واسطة " (١) .

وبالتالي فالأفكار الفطرية تمثل استعداد لقبول الفيض بحيث تجتمـع
الملكة والآلة معاً ، ويقع نوع من التلاقي بين وسيلة العلم والمعلوم ، أو بين
الفطرة والمفطور (٢) .

ويؤكد ذات النتيجة ، النظر إلى أصل الفطرة حيث يقـول : " فلـو
نظرنا إلى أصل فطرة الروح ، وأنه أول مقدور تعلق به القدرة فهو أقرب
الأقربين إلى الحضرة " (٣) .

ولما كان هذا الاستعداد لقبول الفيض الإلهي يمثـل الفطـرة، فقـد
انطلقوا من ورائها إلى التأكيد على الجواهر العنصرية، بحيث تظهر فيها
آثار الأفكار الفطرية ، وحينئذ يكون المظهر للأفكار هو العنصر المادي

---

(١) العلامة أبو بكر عبدالله بن شاهاور الرازي ، كتاب منارات السائرين ومقامـات الطـائرين
ص٢٨٠ / تحقيق وتقديم سعيد عبدالفتاح ، طبعة دار سعاد الصباح الأولى ١٩٩٣م ، الكويت

(٢) علاقة الفطرة بالمفطور هي ذاتها التي تعبر عن العلم والمعلوم ، ومن حيث أنهما يتلاقـ
فتكون الضرورة جامعة بينهما ، والفصل لا يكون ذهنياً ، إذ لا يخلو العلم من المعلـو
ولا ينفرد المعلوم عن العلم إلا إنفراداً ذهنياً ففصلهما كالجواهر والأعراض .

(٣) الشيخ أبو بكر عبدالله بن شاهاور الرازي ، منارات السـائرين ومقامـات الطـائرين
ص٢٨١ ، تحقيق وتقديم سعيد عبدالفتاح .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لا تكن تلك الفكرة هي وحدها التي تعلق بها أصحاب الفكر الصوفي ، بل إن المتابع لجهودهم الفكرية يقابله ابن عربي حيث يعتبرها بمثابة البروق اللامعة ، ويعرفها بأنها : " ما يرد على القلوب من علوم أنوار التجليات " (١) .

ومن ثم فهذه الأفكار الفطرية عند ابن عربي تجئ على مراتب ، إذ إن أول الطريق بمثابة بروق تلمع، وعندما تخرج من هذا الإنسان يذهب ابن عربي إلى ضرب أمثلة لها كالشوق والقلق، والوله، وبجانب الحزن، والقبض والبسط، وهي التي تحولت فيما بعد إلى أحوال ومقامات ترد على أصحاب هذا الجانب .

والأفكار الفطرية لدى الصوفية الأوائل تعبر عن حجب نورانية، واردة من عوالم الغيب الروحانية، بحيث تنعكس صورها على الجوانب الجسمانية، وهذا مما يؤكد وجود سبق علمي داخل الفكر الصوفي، حول هذه الأفكار الفطرية .

وذهب آخرون إلى أنها تستمر في خط متواز مع الكسبية ، كل ما في الأمر أنه عندما يتقدم المرء درجات أعلى في سلم الإلهامات الربانية، فإنه يكون محلا لتلقي المعارف الإلهامية التي تكون على قمة الأفكار الفطرية ، وبعبارة أخرى يمكن اعتبار الأفكار الفطرية في هذا الجانب بمثابة الأسس أو القواعد العامة ، بينما تجئ المعرفة الإلهامية لتمثل القمم أو العمد التي قامت على الأسس الفطرية .

ويؤكد تلك النتيجة ما ذهب إليه البعض من اعتبار الأفكار الفطر

---

(١) عبدالكريم الجيلي ، شرح مشكلات الفتوحات المكية لابن عربي ، ص٧١ ، دراسة وتحقيق دكتور يوسف زيدان ، طبعة دار سعاد الصباح الأولى ١٩٩٢م .

(٢) لأن البوادي هي التي تتقدم الأشياء ، ومن ثم كان أهل العلم يقسمون أبحاثهم العلمية إلى بواد، هي المقدمات ، ثم أواسط وهي الموضوعات ، وأخيرا تأتي النتائج وهي الخواتم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بمثابة الخواطر التي تكون من قبل الله ابتداء ، ثم يتم التعامل معهما على
جانب التوظيف، ما يكون خيرا فإنه يمثل إكراماً، وإلزاماً للحجة القائمة. أما
إذا جاء بالشر ، فإنه يكون على سبيل الامتحان وتغليظ المحنة، مع التأكيد
على أن الذي يجيء من قبل الله في المبدأ والمنتهى لا يكون إلا بخير (١).

وبذلك نشأ عن القول بالأفكار الفطرية لدى الصوفية نوع من التطور ،
أمكن صبغه داخل إطار النصوص النقلية عرفت لديهم باسم " الأفكار الإلهامية "
" فكأنها متطوره في صورة من الصور عن الأفكار الفطرية .

يقول الإمام الغزالي " الإلهام هو حصول المعرفة بغير سبب و
اكتساب ، بل بإلهام من الله تعالى بعد طهارة القلب عن استحسان ما ف
الكونين (٢) .

ويبدو أن الأفكار الفطرية في طبيعتها وموضوعها قد شغلت مساح
كبيرة من التراث الصوفي والأخلاقي في الإسلام ، ولكني ألتقط منه م
تتحقق به الفائدة ، توفيراً للوقت واختصاراً للجهد .

ويلاحظ أن مثبتي الأفكار الفطرية من المتدينين قد اعتبروها والعقي
الدينية شيئا واحدا ، ولما كان الإنسان يولد بفطرته متديناً فقد أطلقوا عليها ا
الأفكار الفطرية ، وقدموا لها الأدلة التي سبق عرض بعضها .

ويتم تفصيل ذلك أثناء الحديث عن الفصل الثاني، وهو بعنوان م
الأفكار الفطرية.

---

(١) الشيخ خميس بن سعيد بن علي بن مسعود الرزستاقي ، منهج الطالبين وبلاغ الراغبي
ص٢٩٢-٢٩٣ ، تحقيق سالم بن حمد بن سليمان الحارسي ، طبعة عيسى الحلبي ، تو
سلطنة عمان ، وزارة التراث القومي والثقافة طبعة ١٤٠٠هـ ١٩٧٩م .

(٢) الإمام الغزالي، رسالة روضة الطالبين وعمدة السالكين ، مجموعة رسائل الإمام الغزا
ص١٢٢ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفصل الثاني

منشأ الأفكار الفطرية

من الواضح أن الأفكار الفطرية عندما يراد الحديث عن منشئها ، من الخطأ القول بأن منكريها لا يبحثون عنها ، وإنما ينصب الحديث بين المقرين بها هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن المراد بمنشأ الأفكار الفطرية هنا ليس النظرية التاريخية التي تتعلق بالنشأة ، فهذا محل بحث في الفلسفة ، أما ما أقصده هنا ، فيراد به المنطقة الموجودة داخل العقل الإنساني ، وتعبر عن معارفه ، ومن ثم فقد ظهرت آراء في المسألة يمكن حصرها على النحو التالي :

الرأي الأول :

يذهب أصحابه إلى القول بأن هذه الأفكار تسبق الميلاد .

أولاً : في الدين :

أ ـ ظواهر الآيات القرآنية :

استدل أصحاب هذا الرأي على قولهم بأن الأفكار الفطرية تسبق خلق الإنسان حتى قبل أن يكون في رحم أمه بظواهر نقلية، منها قوله تعالى ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ من بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـذَا غَافِلِينَ﴾(٢) .

حيث ذهب الإمام الرازي في معنى الآية، إلى قول أصحاب النظ

---

(١) منشأ : اسم مكان يقصد به الجزئية التي تبدأ منها الأفكار الفطرية ، بحيث يمكن ال عليها معبرة عن ذاتها ، وهي تبدأ في العقل ، أم مع العقل ، أم تأتي كنتائج للعقل ، سوف يظهر فيما بعد.

(٢) سورة الأعراف الآية : ١٧٢ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وأرباب المعقولات من أنه تعالى أخرج الذرية وهم الأولاد من أصلاب آبائهم ، وذلك الإخراج أنهم كانوا نطفة فأخرجها الله تعالى في أرحام الأمهات ، وجعلها علقة ، ثم مضغة، ثم جعلهم بشراً سويا ، وخلقا كاملا ثم أشهدهم على أنفسهم، بما ركب فيهم من دلائل وحدانيته ، وعجائب خلقه ، وغرائب صنعه ، فبالا شهاد صاروا كأنهم قالوا بلى ، وإن لم يكن هناك قول باللسان"[1] .

وكذلك استدل على ما ذهب إليه بوجوه عديدة، كلها قامت على تأكيد وقوع الشهادة ، والإقرار بالميثاق بعد نصب الأدلة ، وأن ذلك كله كان العقل فيه حليف الفطرة ، فلم يكن منفرداً ، وإنما كان شاهداً ومقراً ، يدل عليه سياق الآية الكريمة " شهدنا " لأن الآية صرحت به وما صرح به لا يجوز العدول عنه إلى غيره ، وإلا كان خروجا على القاعدة المشهورة لا اجتهاد مع النص .

ويقرر العلامة الزمخشري أن الله تعالى " أخذ من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأخرجهم من أصلابهم نسلا، وأشهدهم على أنفسهم، حيث نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووحدانيته ، وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التي ركبها فيهم، وجعلها مميزة بين الضلالة والهدى " [2] .

ومن ثم يكون الإمام الزمخشري قد أقر بوجود الأفكار الفطرية. من حيث أن الذي ركب في العقول والبصائر هو الذي يميز بين الهدى والضلال ، ولا يمكن حمله على غير ذلك المعنى، وإلا كنا كمن يقرر أمراً صبيحة يوم، ثم يتنحى عنه مساء ذات اليوم .

وعلى نفس المعنى قرر الأمر الشيخ السعدي حيث يقول في معنى الآية الكريمة : " أخرج الله من أصلابهم ذريتهم، وجعلهم يتناسلون

---

(١) الإمام الرازي ، مفاتيح الغيب ، م٨ ، ج١٥ ، ص٥٣ .

(٢) العلامة الزمخشري ، الكشاف ، م٢ ، ص١٧٦ ، طبعة دار الريان .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويقولون قرنا بعد قرن ، وهم حين أخرجهم من بطون أمهاتهم، وأصلاب
آبائهم قررهم بإثبات ربوبيته، بما أودعه في فطرهم من الإقرار بأنه ربهم
وخالقهم ومليكهم ، فقالوا أقررنا بذلك ، فإن الله تعالى فطر عباده على الدين
الحنيف القيم، وكل مفطور قد علم ذلك ، ولكن الفطرة قد تغير وتبدل بما
يطرأ على المفطور من العقائد الفاسدة " (١) .

ويقول صاحب تفسير المنار في معنى الآية: أشهد كل واحد من هذه
الذرية المتسلسلة على نفسه، بما أودعه في غريزته واستعداد عقله قائلاً
بلسان الاستعداد، ولسان الحال، لا بقول وحي وتلقين ، " ألست بربكم ؟ " فقالوا كذلك
قول إرادة وتكوين ، لا بلسان المقال (٢) .

ولا شك أن هذا الذي مر ذكره يوجد فيه قاسم مشترك، وهو التأكيد
على وجود الأفكار الفطرية ، وأنها تسبق الهيكل الجسماني ، وأن لها
استقلالاً يدفع إلى قبولها بعيداً عن ميدان التشبث بالنظريات، وبخاصة أنه
قد تأكد لنا إمكانية وقوع تعديل على الفطرة بعد أن يكون المرء قادراً على
ذلك ، ويستدل على الأمرين معا ــ الفطرة والتعديل فيها ــ بقوله ﷺ فيما
يرويه عن رب العزة : إني خلقت عبادي حنفاء كلهم ، وأنهم أتتهم
الشياطين فاجتالتهم عن دينهم ، وحرمت عليهم ما أحللت لهم ، وأمرتهم أن
يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا "(٣).

ب ــ في السنة :

وردت أحاديث صحيحة تدل على سبق هذه الفطرة للميلاد وبخاصة

---

(١) العلامة الشيخ عبدالرحمن ناصر السعدي ، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، ص٣١٧ ، طبعة دار الحديث بالقاهرة ، الأولى .

(٢) العلامة الإمام محمد رشيد رضا ، تفسير المنار ، ج٩ ، ص٣٢٦ ، العدد ٤٧ .

(٣) صحيح الأحاديث القدسية ما حكاه النبي عن رب البرية ، كتاب بدء الخلق ، (العباد خلقوا حنفاء لله تعالى) ، ص٥٧ ، تحقيق العلامة محمد ناصر الدين الألباني .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في الأحاديث التي تدل على أخذ الميثاق من ذرية آدم عليه السلام وشهادتهم، وإقرارهم بربوبية الله ووجدانيه ، ومن هذه الأحاديث ما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : " إن الله أخذ الميثاق من ظهر آدم بنعمان يوم عرفة، وأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرهم بين يديه كالذر، ثم كلمهم قبلا قال (ألست بربكم قالوا بلى)"(١).

وقد ذكر الإمام الرازي مذهب أهل الأثر في هذه الآية فقال : لما سئل النبي ﷺ عنها فقال : " إن الله سبحانه وتعالى خلق آدم ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية، فقال خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون(٢) ، ثم مسح ظهره فاستخرج منه ذرية، فقال خلقت هؤلاء للنار، وبعمل أهل النار يعملون (٣) ، فقال رجل يا رسول الله ففيم العمل ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : إن الله إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت، على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخل الجنة ، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله الله النار "(٤).

وبذلك يكون معنى الفطرة، الصورة التي خلق الله كل فرد عليها، مبدأ الخلق إلى المنتهى ، ويكون اتجاه مفكري المسلمين في الأفكار الدينية قائماً على تفهم ظواهر النصوص النقلية .

ثم إن هذه المعرفة الفطرية قامت بغرض تعريف الناس بالخالق

---

(١) صحيح الاحاديث القدسية ، كتاب الأسماء والصفات ، أخذ الميثاق من بني آدم ، ص٢٠ تحقيق محمد ناصر الدين الألباني .

(٢) لم يفهم من هذا الجبر والإكراه ، وإنما يفهم منه أن كل شيء مقدر في علم الله الأزلي، ويأخذ على أرض الواقع فذلك مما تجرى به الأسباب ويتعلق بالقدر الإلهي في قوله ﴿سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾ .

(٣) النتيجة وليس المقدمات ، فالمخالفون يعملون بعمل أهل النار نظراً لأنه وقعت

(٤) الرازي ، مفاتيح الغيب ، م٨ ، ج١٥ ، ص٥٠ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لعالم جل علاه صانع ذات الفطرة ، وبالتالي يكون أول الأفكار الفطرية
وجوداً في الفطرة ما يتعلق بالعقد الذي وثقه الله عز وجل مع بني الإنسان،
حينما كانوا ذكرة في ضمير الغيب، أو طفلا في رحم الزمن .

ولكن هذا المعنى صاحب فتح الباري عند شرحه لحديث " ما من مولود
إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه ... "(١) .

فقال : " ذهب قوم إلى معنى فطرة الله التي فطر الناس عليها ، هي
أن الله خلق فيهم المعرفة والإنكار ، فلما أخذ الميثاق من الذرية قالوا جميعاً
بلى ، أما أهل السعادة فقالوها طوعاً ، وأما أهل الشقاوة فقالوها كرها "(٢) .

ويقول ابن قتيبة في شرح هذا الحديث : " إن المراد بقوله ﷺ " كل
مولود يولد على الفطرة أي أخذ الميثاق الذي أخذه عليهم في أصلاب
آبائهم، وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا : بلى ، فلست واجدا أحداً
إلا وهو مقر بأن له صانعا ومدبراً، وإن سماه بغير اسمه أو عبد شيئاً دونه
ليقربه منه عند نفسه أو وصفه بغير صفته، أو أضاف إليه فتعالى عنه علوا
كبيرا فقال تعالى : (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله) فكل مولود في
العالم على ذلك العهد والإقرار، وهي الحنيفية التي وقعت في أول الخلق،
وجرت في فطر العقول"(٣).

ثالثاً ، ما ذهب إليه بعض مفكري المسلمين من سبق الفطرة للميلاد ، ومن
بين هؤلاء ما يلي:

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب الجنائز ، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه ، ج١ / ص٤٥٦ .

(٢) أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي ، فتح الباري ، ج٣ ، ص٤٩ .

(٣) عبدالله بن مسلم بن قتيبه أبو محمد الدينوري ، تأويل مختلف الحديث ، ج١ ، ص١٢٩ ، دار الجيل ، بيروت ، تحقيق محمد زهري النجار .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

١- السهروردي[١] ٥٤٩-٥٨٧هـ .

يذهب العلامة السهروردي إلى أن الأفكار الفطرية تكون موجودة في النفس، آتية إليها من عالم المثال، الذي يطبع في أفراده واحدا واحدا، حيث يقول : " إن المثال إن كان بمثال أن لم يعلم أنه مثال للنفسه فلم يعلم نفسه ، وإن علم أنه مثال نفسه فقد علم نفسه "[٢].

وبالتالي تصور الأفكار الفطرية صفة للنفس، متعلقة بها من عالم المثال، لا بصفة زائدة ، وإنما بصفة منطبعة .

فهو يعتبر أن الأفكار الفطرية صفة من صفات النفس آتية من عالم نور الأنوار ، وبالتالي تكون فطريتها لا من ذاتها، كما ذهب إليه أفلاطون، وإنما فطريتها لكونها مخلوقة من قبل الله بها ، وهذا يوضح الفرق بين مأخذ أفلاطون ، ومأخذ السهروردي .

ويؤكد السهروردي ذلك بقوله : " إن النور هو الظاهر في حقيقة نفسه، المظهر لغيره بذاته[٣] ، وهو أظهر في نفسه من كل ما يكون الظهور زائد، على حقيقته[٤] " .

---

(١) هو شهاب الدين يحيى السهروردي " المقتول " نسبة إلى بلدة سهرورد القريبة من زنجان بأرض الفرس بمنطقة تسمى الجبال ، إليها ينسب الكثير من العلماء والمتصوفين ، وهو غير شهاب الدين عمر السهروردي صاحب عوارف المعارف المتوفي سنة ٥٣٩هـ، قبل مولد السهروردي الذي نتحدث عنه ، راجع شذرات الذهب ، ابن العماد ، ج٢، ص٢٩٠، وعيون الأنباء ، ج٢ ، ص١٦٧ .

٢) العلامة شهاب الدين يحيى السهروردي ، مجموعة مصنفات شيخ إشراق ، م٢، ص١١١، سلسلة الزخائر ، تصحيح وترجمة/ هنري كربين، رقم ٥٧، الهيئة العامة لقصور الثقافة.

) فالنور عنده له مصدر هو نور الأنوار وهو الله سبحانه وتعالى ، ويكون السهروردي بهذا متفقاً مع اتجاهه الدين .

الشيخ السهروردي شهاب الدين ، مجموعة مصنفات شيخ إشراق ، م٢ ، ص١١٣ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٢- ابن الفارض :

يذهب ابن الفارض إلى أن الأفكار الفطرية لصاحب الروح التكليفية منذ عملية التصوير في الأرحام ! بل هي مطبوعة في الروح قبل أن تتصل بالبدن ، ويؤكد هذه الفكرة أحد الباحثين بقوله : يرى ابن الفارض " أن هذه المعرفة طبعت في النفس منذ الأزل ، أي قبل أن تتصل الروح بالبدن، هذا الاتصال الذي أفسد عليها حياتها الأولى ، وحال بينها وبين معرفتها الإلهامية المطبوعة فيها ، وجعلها عاجزة عن تجاوز المعرفة الحسية إلى هذه المعرفة الإلهامية المطبوعة فيها "[1] .

ولا شك أن الأفكار الفطرية إذا اعتبرت هي الأصل التي تقوم عليه المعرفة الإلهامية ، فقد اتضح أنها موجودة في النفس الإنسانية منذ فترة طويلة لا يعملها إلا الله ، وقد دلت عليها ظواهر النصوص القرآنية منها قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ من ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾[2]

ومحل الشاهد أن الله تعالى خاطب الأرواح في عالم الذر فسمعت واستجابت وأصغت وأجابت ، فدل الأمر على أنها واعية، مؤهلة للإعلان عن الأفكار القائمة فيها منذ الفطرة ، بل يمكن القول بأن قوله تعالى : ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾[3] ، إنما ينصب أساساً على المقام الذي تقف فيه عقيدة التوحيد معبرة عن أصل الأفكار الفطرية التي تدور في هذا الإطار من غير أن تخرج عليه .

وقد تواتر لدى القائلين بالأفكار الفطرية من المسلمين أن أبرز ما فيها هو ما يتعلق بتوحيد الله عز وجل، والإقرار له بالعبودية .

فيذكر العلامة الكاشاني : أن الأفكار الفطرية الموجودة في النفس

---

(١) الدكتور محمد مصطفى حلمي ، ابن الفارض والحب الإلهي ، ص٢٤٤ .

(٢) سورة الأعراف الآية : ١٧٢

(٣) سورة الروم الآية : ٣٠

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تقوم على " العقود والمواثيق المأخوذة على النفس الإنسانية، من الإقرار بأداء العبودية، المرتبة على عقد الربوبية "(١).

ولا شك أن الإقرار لله بالوحدانية ، واستلزام العبد القيام بعلم الربانية ، واشعار نفسه بأنه خاضع في نطاق الربوبية والعبودية يعلل اتجاها دقيقا بما تم الإقرار عليه في عالم الذر .

٣- ابن عربي :

يذهب ابن عربي إلى أن المعارف الفطرية تكون في الإنسان قبل مولده، ويفرق بين ما يرد على ذات الإنسان من المعارف الإلهية ، وما يرد عليه من المعارف الإنسانية ، ويؤكد أن الأفكار الفطرية من النوع الأول ، " وأنها ترد على سبيل المقابلة في عين واحده على أساس أن المولى الكريم يمثل جهة ذاته ، والآخرين يمثلون جهة الخلق، لا جهة الخالق ، كما لن العبد تجيئه معارفه من عين واحدة ، لكن عين العبد ثبوتية ما برحت من أصلها، ولا خرجت من معدنها ، ولكن كساها الحق حلة وجوده فعينها باطل وجودها ، ووجودها عين موجودها ، فما ظهر إلا الحق ، وعين العبد باق على أصله ، لكنه استفاد ما لم يكن عنده من العلم بذاته "(٢).

ولما كانت المعارف الفطرية ترد على العبد من قبل مولاها ؛ فإنها تكون له قبل ولادته ، أما التي ترد معه عند ولادته ؛ فإنها وإن سميت معارف فطرية، فإنها تكون إضافية لا أصلية ، وترى على ناحية نسبية(٣).

---

(١) العلامة المحقق الشيخ عبدالرازق الكاشاني ، كشف الوجوه الغر لمعاني نظم الدر ، شرح تائية ابن الفارض الكبرى المشتهرة بنظم السلوك ، ج١ ، ص٧١ ، الطبعة الأولى ١٣١٩هـ.

(٢) العلامة محيي الدين ابن عربي ، الفتوحات المكية ، السفر الحادي عشر ، الباب الثالث والسبعون ، ص٢٦٣ ، تحقيق دكتور عثمان يحيى ، المجلس الأعلى للثقافة ، الهيئة المصرية للكتاب ، ١٤٠٧هـ ، ١٩٨٧م .

(٣) النسبية المراده عند ابن عربي هي التي تكون واقعة بين ما قبل الولادة ، وأثناء الولادة ؛ لأن المرء قبل الولادة تكون له معارف تمثل أفكاراً فطرية سابقة على وجود الجسد ، وفيها من الإشارة ما يغني عن التشبيه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كما يؤكد ابن عربي ذلك بقوله : " إنحصر لك الأمر في ثلاث معارف أمهات ، معرفة نسبة التنزيه[١] ، ومعرفة نسبة التحديد والتشبيه[٢]، ومعرفة أعطاها مقامك بين هاتين النسبتين، وهو عينك لا وجود عينك، لكن وجود عينك هو وجود الحق ، فلا ينسب إليك ، فمن لا علم له بهذه المعارف الأمهات فهو المنحرف "[٣] .

ويؤكد ابن عربي أن الأفكار الفطرية يمكنها أن تبقى نقية ، ويمكن أن يقع لها نوع من التلوث في المستقبل ، أما أن تبقى نقية فهو معيار الفطرة الأصلية ، وأن هذا النوع يجئ في الخواص من العباد ، وهم الرسل صلوات الله عليهم أجمعين ، أما ما يمكن أن يقع لهم التلوث فإنما يكون بممارسة هؤلاء ما يخالف الفطرة التي فطرهم الله عليها ، ولذلك حذر من الوقوع في الانحراف ، وأمر كل المسلمين أن يتمسكوا بما فيه الإنصاف .

ونحن إذا قارنا بين الأفكار الفطرية لدى ابن عربي ، وأفلاطون مثلاً، وجدنا ابن عربي ينظر إليها نظرتين مختلفتين :

الأولى : نظرة الصفاء والبقاء على الأصل النوراني ، حيث لا يقع خلل ، ولا اهتزاز ، وإنما يبقى النور كما هو .

الثانية : ينظر إلى الفطرة باعتبار الأفكار التي وقع عليها نوع من التلوث، أياً كانت درجته ، ويصف الواقع في هذا التلوث بالمنحرف، وهذا في حد ذاته يمثل فارقاً كبيراً بين أفلاطون وابن عربي .

فأفلاطون نظر إليها باعتبار المصدر ، وأنها من عالم المثل المعقولة سواء حدث لها نوع من التلوث أم لم يحدث ، أما ابن عربي ،

---

(١) وهي التي تكون للعبد قبل ولادته وتمثل الأفكار الفطرية الأصلية ؛ لأنه لم يقع لا تحديد ولا تشبيه .

(٢) وهي التي تتم داخل الرحم عند تصوير العبد ، حيث يكون جامعا بين الاستعدادات وبين المنح.

(٣) ابن عربي ، الفتوحات المكية ، السفر الحادي عشر ، ص٢٦٥ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فيجعل الإنسان مسئولاً عن بقائها صافية أو وقوعها في دائرة التلوث ، ويستند ابن عربي على ظواهر النصوص القرآنية في قوله تعالى : ﴿ لقد خلقنا الإنسانَ في أحسنِ تقويم﴾ (١) ، فقال كثير من العلماء : إن أحسن تقويم يتعلق بالقدارة والشكل وهو الأولى ، كما يتعلق بالامتياز بالنعيم في جنات عدن والفردوس الأعلى .

كما دلت عليه ظواهر الأحاديث النبوية منها قوله ﷺ : " ما من مولود إلا يولد على الفطرة "

ويؤكد ابن عربي أن بقاء الفطرة سليمة معناه استمرار حصول الأنوار في القلب ، ومعيار بيان انحرافها، هو خروج صاحبها على هذا القبول ، وبالتالي كان واضعاً في حسبانه أن المعرفة يجب أن تكون الفطرة فيها سباقة ، وأن يكون المحتوى المعرفي معتمده التخلق بأسماء الله جل علاه يقول ابن عربي : " فالعارفون من عباد الله يجعلون بينهم وبين نعوت الحق عند التخلق بأسمائه ما وصف الله به الملأ الأعلى من تلك الصفة ، فيأخذونها من حيث هي صفة لعبيد من عباد الله مطهرين(٢) ، لا من حيث هي صفة للحق تعالى ، فإن شرفهم ألا يبرحوا من مقام العبودية " (٣) .

والذي آراه جديرا بالقبول أن الأفكار الفطرية لدى ابن عربي قد صنفت باعتبارات مختلفة من حيث الصفاء والكدورة ، هذا من ناحية ، ومن حيث العموم والشمول هذه ناحية أخرى ، وثالثة باعتبار ما يجئ قبل الولادة أم مصاحباً للولادة أو لاحقا لها ، فكانت وجهة نظره أوسع من أفلاطون وأكثر شمولاً ، ويمتاز عن أفلاطون بأنه ساير جمهور مفكري

---

(١) سورة التين الآية : ٤

(٢) ويستدل عليه بقوله تعالى : ﴿ بأيدي سفرة كرام برررة ﴾ سورة عبس الآية : ١٥ ، وقوله تعالى : ﴿ بل عباد مكرمون ﴾ سورة الأنبياء الآية : ٢٦ .

(٣) محيي الدين ابن عربي ، الفتوحات المكية ــ السفر الحادي عشر ، ص٤٨٨ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لمسلمين باعتبار الأفكار الفطرية منحة إلهية .

١- صدر الدين الشيرازي[1] (٩٧٩ ــ ١٠٥٠هـ)

ينظر إلى الأفكار الفطرية على أنها حاضرة مع الذوات بهويتها ، وبالتالي فتكون سابقة على الميلاد ، وليست مصاحبة له ؛ لأن الهوية تمثل صورا ذهنية، وهي تسبق الوجود الفعلي ، فنحن نقول مثلاً ، ما هو الإنسان ؟ ، فيجئ الرد لدى المناطقة بأنه حيوان ناطق ، ومعناه أن هويته التي وجدت ، والتي لم توجد واحده .

فالأفكار الفطرية حاضرة في الذات بنفس حضور المهايا من غير اعتبار لشيء آخر .

ويقرر الدكتور محمد عبدالفضيل أن صدر الدين الشيرازي ينظر إلى هذا النوع من المعرفة ويسميه العلم الحضوري ويقول : " فالمعلوم في النوع الأول ــ العلم الحضوري ــ هو الذات واحد في هويته، وفي صورته الذهنية، أي أن ما نعلمه من ذواتنا هو ذواتنا ، والمعلوم في النوع الثاني وهو المعلول واحد في هويته ، وفي صورته الذهنية " [2] .

ومعرفة الذات للذات تتم في التاريخ القديم حين خاطب الله الإنسان في عالم الذر بعيداً تماماً عن الهياكل الجسمانية ، يومها أدرك كل ذات أنه المخاطب ، وأنه المسئول ، وأنه المكلف ، وأن الجسد المتشخص لم يكن قد خلق بعد ، ومن هنا برزت علاقة بين الأفكار الفطرية ، وبين خالق الأفكار الفطرية هي ما يسميه الشيرازي علاقة بين العارف والمعروف ، لا على أساس إتحاد وجودي ــ تعالى الله عن ذلك علواً كبيرا ــ وإنما على أساس

---

(١) هو صدر الدين محمد بن إبراهيم بن يحيى القوامي الشيرازي المعروف بالملا صدرا ، ولد سنة ٩٨٥هـ ، وتوفي ١٠٥٠هـ أي في عام ١٦٤٠م .

(٢) الدكتور محمد عبدالفضيل محمد عبدالعزيز ، الفلسفة الإشراقية عند صدر الدين الشيرازي ، ص٢٣٢-٢٣٣ ، رسالة دكتوراه ، بكلية أصول الدين بالقاهرة ، فبراير سنة ١٩٧٥م .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أن الأفكار الفطرية مصدرها هو الله تعالى وهو الخالق لها ، وهي العلوم لد . وهي سابقة على وجود الذات ، ومن ثم صارت تلك المعرفة حضورية في مقابلة الأخرى الحصولية .

ويؤكد الشيرازي مرة أخرى أن الأفكار الفطرية ما هي إلا نور يتردد بين عالم الغيب .

فإذا وصل إلى ذات الفرد تحول من نور مطلق إلى نور للنفس ، ولنفوره وهو أيضاً مدار العلم الحصولي ، ومن ثم فإن الأفكار الفطريـة تمثـل لـدى الشيرازي جزءاً من نظرية المعرفة ، وأن هذا الجزء محدد يتمثل لدى طائفـة الإشراقيين في العلم الحضوري الذي تحضر فيه ذات المعرفة عند العارف، من غير حاجة إلى شيء آخر ، وهي نفس الفكرة التي طرحت من قبل ؛ لتوضيح العلاقة بين الذات العارف، والموضوع المعرفي ، بما يؤكد أن الشـيرازي قـد أشار إلى الأفكار الفطرية؛ وإن لم يكن قد عنون لها في مؤلفاته (١) .

ويمكن الوقوف عليها من خلال المراجعة الدقيقة للمصنفات التي خلفها لمن بعده.

ونحن إذا أردنا المقارنة بين ما ذكره الشيرازي ، وما ذكره سابقوه تبين لنا إمكانية وقوع الاستفادة من السابق ، وانفراد كل لاحـق بجزئيـة صغيرة تميزه عن غيره ، ويمكن القول أيضاً بأن منطلق الشيرازي لم يكن منطلقاً عاما، بمعنى أنه حسم الأمر في ضرورة وجود الأفكـار الفطريـة، وإنما رجح وجودها، واستدل بأدلة سلف الإلماح إليها (٢) .

والشيرازي نظر إلى الماهية المفسرة للوضع العام، ثم وضعها في إطار ابستمولوجي خالص، ينصرف إلـى طبيعـة المعرفـة ، وإمكانيـة وجودها، وهو بهذا يفتح الباب لأنماط جديدة من البحث العلمي الهادف.

---

(١) كثير من المفكرين والفلاسفة يعنونون لكثير من أبحاثهم بعناوين ثابتة، يتم فحص ما تحتها فحصاً دقيقاً بحيث يرتبط بها ارتباطاً وثيقاً، وهو ما يسمى بالوصف العنواني .

(٢) هناك فرق بين وجوب وجود الأفكار الفطرية ، وبين إمكانية وجود الأفكار الفطرية .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثانياً : في الفلسفة :

يذكر أفلاطون أن المعرفة التي ترد على الإنسان إنما هي سابقة على مولده ؛ لأن الروح عندما كانت في عالم الأرواح حصلت لها معرفة تساوي المطلق تماماً بتمام ، ثم ينتهي إلى القول بأننا " قد حصلنا معرفة المتساوي المثالي في زمن سابق (أي قبل أن نولد) ، وإذا كنا قد حصلنا هذه المعرفة قبل أن نولد ، وكانت لدينا عند الميلاد، إذاً فقد كنا قبل الميلاد ، وفي ساعة الميلاد نفسها نعرف كذلك ، فضلاً عن المتساوي والأكبر والأصغر وسائر المثل جميعاً " (١) .

صحيح يقر أفلاطون بوجود الأفكار الفطرية ، ولكنه يربطها بنظرية التذكر التي تقوم على أن العلم بالكليات يوجد في الذهن قبل أن يولد الإنسان ، انطلاقاً من رؤيته لعالم المثل الذي تقوم كافة الأشكال فيه ، وتنزل منه إلى الأفراد بعد الميلاد (٢) .

ثم يقرر وجود فوارق بين الأفكار الفطرية كأصول عامة كلية جاءت للذهن من عالم المثال ، وبين كونها أفكارا فطرية فردية ترد لكل فرد على حده ، ويطلق عليها اسم المعرفة الكسبية أثناء الميلاد ، وبهذا يميز بين صورتين للأفكار الفطرية فيقول : " إذا نحن بعد كسب المعرفة لم ننس ما كنا قد كسبنا ، فلا بد أنا قد ولدنا ومعنا المعرفة دائما ، وسنظل أبداً على علم بها ما دامت الحياة ؛ لأن العلم هو كسب المعرفة وحفظها لا نسيانها " (٣) .

---

(١) أفلاطون ، محاورات أفلاطون (محاورة فيدون) ص٢٠٦ ، ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٥م .

(٢) يلاحظ أن عالم المثل لدى أفلاطون قامت فيه الأفكار كجزء من المعارف المطبوعة داخل المثال وهو لا يقصرها على المتساوي والمطلق فقط ، ولكنه يضم إليه الجمال والخير والعدل والقداسة .

(٣) أفلاطون ، محاورات أفلاطون ، محاورة فيدون ، ص٢٠٧ ، ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

صحيح يذهب أفلاطون إلى أن الأفكار الفطرية في عالم المثل المثل، وعند الميلاد وقع لها اكتساب ، لكنه بالشيء نظرية أصلية تقوم على الأفكار الفطرية، وترتبط بها ارتباطاً وثيقاً عرفت باسم نظرية " التذكر "(١).

ويؤكد أن الوسائل الحسية هي التي تعين على هذا التذكر ، ويهاجم الذين يرفضون وجهة نظره، على أساس أنهم قد أسرعوا في إصدار أحكام على موضوعات لم تتم لهم دراستها على وجه دقيق ، أو لأنهم دخلوا موضوعات غير مؤهلين لها .

وإذا كنا في مجال الحديث عن الأفكار الفطرية من حيث المنشأ، فإن وجهة نظر أفلاطون يمكن قبولها ، نظراً لوجود ظواهر تؤيدها سواء أكانت هذه الظواهر محل قبول من خصومه أم لا ، ولكن ما قام به أفلاطون إنما بناه على فكرة سبقية في ذهنه هي أزلية الروح ، فما دامت الروح أزلية، وهي التي تقوم بالمعارف فلا شك أن الأفكار الفطرية تكون مطبوعة فيها، وهذا ما أكده أفلاطون بقوله : " النفوس كانت موجودة قبل وجودها في الصورة الإنسانية منفصلة عن الجسد ومالكه للفكر " (٢).

ونظراً لكون الروح مخلوقة كباقي الخلائق ، فإننا نرفض القول بأزلية الروح على النحو الذي مال إليه أفلاطون ومن تبعه ، على أساس أننا لو قلنا بأزليتها لشاركت الخالق جل علاه فيما له من القدم، وهذا لا يتفق مع عقيدتنا الإسلامية، التي تقول بحدوث كل شيء سوى الله عز وجل.

ويلاحظ أن الأفكار الفطرية التي قال بها أفلاطون في عالم المثل الخيالي الذي بناه داخل كهفه الخاص ، لا يستقيم من حيث الحديث عن الأفكار الفطرية الذاتية في عالم الواقع ، وهذا ما تنبه إليه المفكرون المسلمون .

---

(١) التذكر : هو تكرار المعارف على القلب لتثبت وترسخ ، راجع للإمام أبي حامد الغزالي: روضة الطالبين وعمدة السالكين ، مجموعة رسائل الإمام الغزالي ، ص١٦١ .

(٢) الأصول الأفلاطونية ، فيدون ، ج١/ ص٥٣ ، ترجمة الدكتور نجيب بلدى ـ الدكتور علي سامي النشار ، عباس الشربيني ، الطبعة الأولى ، دارا لمعارف ، سنة١٩٦١م.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ومن ثم يتبين لنا الفرق بين وجهة نظر أفلاطون والسهروردي مثلاً ومن أهم ما يلي :

١- أن أفلاطون اعتبر الروح أزلية ، فالأفكار الفطرية ذاتية مصدرها الروح ذاتها ، بينما نظر السهروردي إلى أن الأفكار الفطرية نور الأنوار ، وبالتالي فهي صفة زائدة من حيث هي ؛ لأن مفكري المسلمين يفرقون بين الذوات، والعرضيات تفريقاً جوهرياً .

٢- ان الأفكار الفطرية لدى أفلاطون معرفة، يمكن أن تنمو بعد الميلاد، لكونها جاءت قبل الميلاد ، وهذا النمو يرتبط بالآلات الحسية ، بينما هي لدى السهروردي منحة ربانية مصدرها النور الإلهي ذاته .

ويقرر السهروردي أن هذه المعرفة الفطرية الآتية من نور الأنوار قد أقر بها جمع كبير ، وأنها تصل مع المرء حال حياته حتى تبلغ الدور الإلهامي، فكأن الأفكار الفطرية عند السهروردي لا تقف في منطقة عالم الأرواح ، وإنما تمتد مع الإنسان حيث تكون هي المعبر عن الأنوار الإلهية ، وهذا مما يمثل تمايزاً له على غيره ، ومنهم أفلاطون نفسه .

وإذا كان أفلاطون قد نظر إلى الأفكار الفطرية من خلال المثل العقلية ، فإن السهروردي قد نظر إليها من خلال المثل المعلقة [1] .

ولا شك أن هذا يؤكد استقلال المفكر المسلم عن المفكر اليوناني ؛ لأن المفكر المسلم قام في معارفه على نصوص شرعية ، بينما الآخر قامت أفكاره على معارف بشرية .

ومهما يكن من شيء فإن الذي لا خلاف حوله لدى أصحاب هذا الفريق هو اتفاقهم على الآتي :

---

(١) مثل أفلاطون تقف في عالم الأنوار العقلية فتكون ظلمانية للأشقياء ، ومستنيرة للسعداء ، وتحدث منها الصور الخيالية ، أما المثل المعلقة عند السهروردي فهي عالم الأشباح المجردة ، راجع السهروردي ، حكمة الأشراق ، ص٥٠٩ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

١- وجود أفكار فطرية قائمة في عالم الذر، تم الحديث معها من قبل الله تعالى ، وشهدت له بالوحدانية ، وصارت بمثابة الصور التكرارية لكل ما يتعلق بالعقيدة الإلهية .

٢- انهم وإن اتفقوا حول المنشأ ، لكن طبيعة الأفكار الفطرية لم يقع استقرار بشأنها .

٣- وجود أفكار فطرية تكون في عالم المثل العقلية عند أفلاطون – سابقة – على مولد الإنسان .

٤- ان أصحاب هذا الاتجاه يختلفون في المصدر الذي يعولون عليه ، ومن ثم يترتب عليه وجود فوارق بينيه ليس من السهل تناسيها، إلا إذا كانت هناك خسائر ترتد إما إلى العقيدة ، وإما إلى المعرفة، وهذا ما لا نسمح لأنفسنا به .

الرأي الثاني :

مصاحبة الأفكار الفطرية للولادة :

يذهب أصحاب هذا الاتجاه إلى أن منشأ الأفكار الفطرية في الإنسان لا يكون سابقا على ولادته، كما ذهب إليه أصحاب الرأي الذي سلف ، ولا لاحقا له كما هو رأي من سيأتي فيما بعد ، ولكنهم ينظرون نظرة مقارنة فيقولون : إن الأفكار الفطرية تصاحب تكوين الإنسان ، لكنها لا تبدوا إلا مع ولادته فتنموا بنموه، ويتأثر بها بالقدر التي يمكنها أن تؤثر فيه.

إن الأفكار الفطرية لدى أصحاب هذا الاتجاه تشبه خلايا تنموا داخل الجسم ، وكلما تقدمت به سنة اتسعت مساحة الأفكار الفطرية في الإعلان عن نفسها ، ولكنها ثابتة، ودائمه في طبيعتها، عامة لدى جميع الناس (١).

---

(١) راجع الدكتور توفيق الطويل ، مذهب المنفعة العامة في فلسفة الأخلاق ص٣٧ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أولاً : في الدين :

يستأنس أصحاب هذا الاتجاه من المتدينين بقوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾[١] .

أي هو الذي يصوركم وأنتم أجنة في الأرحام، بصور مختلفة، وقدرات متفاوتة، جسمها ورد الخلاق العظيم ، وقال في ذلك بعض المفسرين " إن هذه الآية تشير إلى وجه من الوجوه المعجزة لقدرة الباري المصور ، " حيث إن الله تعالى يودع في البويضة الدقيقة الحجم جميع المورثات، الجينات التي تحدد جنس المولود، ونصيبه من الخصائص الجسمانية ، وبل ومواهبه العقلية والنفسية، والسمات الرئيسية في تكوين الشخصية الوارثة ، وإن كانت تسير على قوانين ثابتة ، إلا أن هذا التحديد لكل فرد بذاته من التقاء بويضة بعينها، وحيوان منوي بعينه من بين الملايين من أقرانه، هو من دلائل المشئية المطلقة "[٢] .

وبالتالي فأصحاب هذا الاتجاه يقررون وجود أفكار فطرية، وجدت مع الإنسان يوم خلق ، ومن أمثلة هذه الأفكار " الإيمان بوجود قوة عليا يلوذ بها الإنسان، والإيمان بخلود الروح، والحياة الثانية فكلها فطرة إنسانية، وجدت مع الإنسان يوم خلق، وهي التي سمت به ، ويسرت له ذلك السلطان العظيم ، والخلافة الكبرى على الكوكب الأرضي "[٣] .

وكان مستند أصحاب هذا الرأي أيضاً قول الرسول ﷺ : " **ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة**

---

(١) سورة آل عمران الآية : ٦

(٢) المنتخب في تفسير القرآن الكريم ــ لجنة القرآن والسنة ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، ص٧١ ، هامش الطبعة الثانية ، ١٣٩٢هـ .

(٣) الأستاذ طه عبدالباقي سرور ، شخصيات صوفية ، ص١٠ ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، الطبعة الأولى ، ١٣٦٨هـ ، ١٩٤٨م .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء؟" [١].

قال الإمام النووي في شرح الحديث : " إن معناه أن كل مولود يولد متهيئاً للإسلام ، فمن كان أبواه أو أحدهما مسلما استمر على الإسلام في أحكام الآخرة والدنيا ، وإن كان أبواه كافرين جرى عليه حكمهما في أحكام الدنيا "[٢] .

فهذا يعني أن الإنسان يولد على الفطرة النقية الطاهرة الثابتة ، ثم يحدث لها التطور والتغير بعد ذلك بفعل البشر أنفسهم ، والبيئة التي ولد فيها .

---

(١) صحيح البخاري ــ كتاب الجنائز ، باب إذا أسلم الصبي فمات ، هل يصلي عليه ، ج١، ص٤٥٦ ، وصحيح مسلم ــ كتاب القدر ــ باب معنى كل مولود يولد على الفطرة ، م٨، ج١٦ ، ص١٥٦ ، حديث رقم (٢٦٥٨).

(٢) الإمام محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف النووي ، شرح صحيح مسلم ، م٨ ، ج١١ ، ص١٥٧ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثانياً : في الفلسفة :

ابن باجة : ٥٣٣هـ

بكر أبو بكر بن باجة أن الأفكار الفطرية أنها اختيار خاص ، أنها
معدة من قبل الله تعالى لقبول الكمالات ، وهي ترد مع الإنسان منذ ولادته
يحيث يخلق مزوداً بها ، وهي في الأساس تحيى شاملة معرفة الله تعالى
وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والسعادة التي ينتظرها كل امرئ
الكمال الإنساني (١) .

يقول ابن باجة : " الفطر الفائقة المعدة لقبول الكمال الإنساني هي
المعدة لقبول العقل الإنساني ، ثم لقبول عقل إلهي ، وهو عقل مستفاد من الله
عز وجل لا يدرك (٢) ، وهي الفطر التي تعلم الله وملائكته وكتبه ورسله
واليوم الآخر (٣) ، والسعادة التي هي بقاء لا فناء معه "(٤) .

وبهذا يقع نوع من التمايز بين الأفكار الفطرية لدى ابن باجة
وأفلاطون بما يؤكد أن منزع كل منهما ليس هو منزع الآخر ، فأفلاطون
يتحدث عن أفكار فطرية منشأها المثل العقلية ، بينما ابن باجة يتحدث عن
أفكار فطرية قامت على منح إلهية ، كما أن أفلاطون علق أفكاره الفطرية
على أزلية الروح ، أما ابن باجة فقد جعل معتمده هو ما خلقه الله في
الفطرة المتميزة من استعداد لقبول الكمال الإنساني .

---

(١) لأن السعادة في عرف مفكري المسلمين لا تقتصر على ما يناله الفرد في دار الدنيا ، وإنما تمتد إلى الأخرة ، إذ هي دار المعين الأبدي التي تتحقق فيها السعادة الكاملة .

(٢) هذا إعلان صريح من ابن باجة بأن العقل من حيث هو يجب أن يرد الأمر فيه إلى الغيب فيكون من هذه الناحية داخلاً في نطاق الغيبيات وهذا ما يمتاز به ابن باجة عن غيره .

(٣) هذه الجوانب تمثل أجزاء العقيدة الإلهية الواردة في قوله ﷺ : " الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره " .

(٤) ابن باجة ، رسائل فلسفية (نصوص فلسفية غير منشورة) ص١٧٥ ، تحقيق الدين العلوي ، نشرة دار النشر المغربية ، طبعة دار الثقافة ـ بيروت .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ومما يؤكد تلك النتيجة هو قول ابن باجة نفسه " فمن أن يسوى الشر ، ببصيرة نفسه[١] التي هي موهبة من الله عز وجل ، الموجودات على كمال وجودها ، فالذين بلغوا الكمال الإنساني هم الذين يعلمون الله عز وجل ومخلوقاته ، وصار هذا العلم صورة لهم ، وذلك هو الكمال العقلي "[٢] .

بيد أن ابن باجة حين يقدم الأفكار الفطرية للقارئ ، إنما يزينها بزينة كلامية ذات سمة فلسفية، أو بعبارة أخرى صاغها صياغة فلسفية تتعلق بالمعارف الإنسانية ، وبهذا يختلف تماماً عن أفلاطون الذي لم تكن له دراية بقضايا علم الكلام ، وفي نفس الوقت لم يقصد أن يقدم صورة فلسفية .

وإذا كان ابن باجة قد أكد على وجود الأفكار الفطرية منذ الخلقة، فإنه في نفس الوقت نزع إلى بيان تفاوتها في الناس لا من حيث هي، وإنما باعتبار ما يلقي إليها، فكان بذلك مسايراً للنصوص الدينية ، ويستدل عليه بقول الرسول ﷺ : " مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم ، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا ، فكان منها نقية قبلت الماء ، فانبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصاب منها طائفة أخرى ، إنما هي قيعان لا تمسك ماء، ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به"[٣] .

في نفس الوقت فإن ابن باجة يشير إلى أنه ما دامت الأفكار الفطرية

---

(١) ببصيرة نفسه عند ابن باجة ، هي الأفكار الفطرية التي يزود به كل فرد استقلالا ، حيث يرى أن كل فرد له أفكار فطرية مستقلة ، لا علاقة لها بالفكرة التي طرحها أفلاطون.

(٢) العلامة ابن باجة ، رسائل فلسفية لابن باجة ، ص١٧٥ .

(٣) صحيح البخاري ، جـ١ ، ص٤٢ ، باب فضل من علم وعلم ، وصحيح مسلم بـ ص١٧٨٧، باب بيان مثل ما بعث به النبي ﷺ من الهدى والعلم .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من قبيل المنح الإلهية فإن التفاضل بين الناس يقع فيها أيضاً ، وكلما اقترب المرء من الله تعالى كلما انفتحت عليه أنوار من خزائن أسراره جل علاه[١].

ويشير ابن باجة إلى أن التفاضل في هبة الله التي بها تبصر القوة الناطقة متفاوت بحسب ما يعطيه الله فيقول : " وهذه الموهبة البصيرية من الله عز وجل تقوم ببصائر القلوب وتتفاضل في الإنسان تفاضلاً عظيماً "[٢].

فابن باجة يشير إلى أن الأفكار الفطرية من حيث المنشأ موجودة ، ومن حيث الاستعداد لقبول الموهبة موجودة أيضاً ، ثم يجعل ـ موهبة الأفكار الفطرية ـ الاستعداد لقبول تلك الموهبة من قبيل الفطريات ، وليستا من قبيل المكتسبات ، إنهما من القضايا اللدنيه والمنح الربانية لا تنالان بكسب ولا مجهود [٣] .

يقول ابن باجة : " فإن الموهبة التي يعطيها الله عز وجل للمرء ويقع فيها التفاوت، هي غير موهبة الاستعداد لقبول الموهبة التي تبصر بها القوة الناطقة ، وهاتان الموهبتان ليستا بمكتسبتين ، وإنما يكتسب ما بعدهما لمن وفقه الله تعالى إلى العمل بما يرضيه " [٤] .

ويلاحظ أن ابن باجة يعول كثيراً على الموهبة ، ويؤكد أنها من حيث هي فطرية فإنه يقع فيها التفاوت ، ومن حيث أنها منحة إلهية يقع فيها التفاوت أيضاً ، بحيث يسمح للفرد بأن يكون مستعداً لها ، وهو معنى الرياضة الروحية والمجاهدة القلبية ، بحيث تعلو أنوارها عليه ولا تنطفئ

---

(١) انفتاح خزائن الأسرار الإلهية ، قد لا تكون له مقدمات ، إنما ترد على العبد ابتداء ، وتكون من قبيل الفيوضات الإلهية لحكم ربانية .

(٢) ابن باجة ، رسائل فلسفية ، ص١٧٦ .

(٣) لأنها لو حصلت للعبد واحده منها أو كلاهما عن طريق الكسب ، ما كانت فطرية ، وإنما ستكون مكتسبة ، ويصير دخل العبد فيها كبير ، فبان أن اتجاه ابن باجة ، مختلف تماما عن اتجاه أفلاطون .

(٤) ابن باجة ، رسائل فلسفية ، ص١٦٧ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من داخله .

ثم إن الأفكار الفطرية لدى أفلاطون جبرية ترد على المرء من عالم المثل رغما عنه كأنها ضربة لازب ، أما عند ابن باجة ، فإنها ترد متفاوتة في استعدادتها متفاوتة في قبولها ، وهي فوق ذلك كله منحة من الخالق الأعظم جل علاه [1] .

٢- القائلين بهذا الرأي في الفلسفة الحديثة :

يقصد بالفلسفة الحديثة ما يتعلق بالعصر الذي نشأ مصاحبا للبحث التجريبي والعقلي بعيداً عن سلطة الكنيسة التي كانت لها السيطرة في العصور الوسطى ، وكلما كان الفكر منضبطاً مع قاعدة عامة أمكن إطلاق اسم الفلسفة الحديثة عليه .

وحيث إن هذه الفلسفة امتدت قروناً عديدة حتى مطالع القرن الحادي والعشرين فقد تسلمت الفلسفة المعاصرة الراية وصارت تحملها .

وسأحاول التقاط بعض النماذج من هذه الفلسفة .

أ- رينيه ديكارت :

اعتقد ديكارت أن الإنسان يولد ، وتولد معه أفكار يسميها أفكاراً فطرية ، ويفرق ديكارت بينها وبين نوعين آخرين من الأفكار يظهر ذلك من تقسيمه للأفكار على وجه العموم:

أحدها : الأفكار التي تكونت بأنفسنا .

ثانيها : الأفكار التي اكتسبناها من الغير ، ثم ينتهي إلى أن الأفكار الفطرية مغروسة في الجبلة، مطبوعة داخل إطار تلك الصنعة ، مصاحبة للمرء منذ ولادته .

---

(١) وما دامت منحة فهي داخلة في نطاق النعمة ، والله عز وجل يقول : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللَّهِ لاَ تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ سورة النحل الآية : ١٨ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يقول : " لا ينبغي أن نعجب من أن الله حين خلقني غرس في هذه الفكرة لكي تكون علامة للصانع مطبوعة على صنعته [١] ، وليس من الضروري كذلك أن تكون هذه العلامة شيئاً آخر غير هذه الصنعة نفسها [٢] ، ومعنى هذا أنه يعتقد بوجود فكرة رئيسية يولد المرء مصاحباً لها وهي فكرة الله[٣] .

ويؤكد ديكارت أن هذه الفكرة حينما ولد الإنسان وجدت معه، فهما توأمان منذ الخلق ، ويؤكد أيضاً أن هذه الدرجة من اليقين تعادل معرفته لنفسه فتكون هذه الثلاثة (الأفكار الفطرية — ومعرفة الإنسان لنفسه - ومعرفته بخالقه) .

يقول ديكارت " إن هذه الفكرة ولدت ، ووجدت معي منذ خلقت ، كما ولدت الفكرة التي لدى عن نفسي " [٤] .

وهذا التأكيد الذي مارسه ديكارت يكشف عن طبيعة وجود الأفكار الفطرية في وجدانه.

وإذا كانت الأفكار الفطرية يمكنها أن ترد الحقائق إلى العلم الالهي ، فقد سعى رجال اللاهوت إليها احتماءً بها ، ورغبة في أن تكون هي حائط الصد الذي يدفع عنهم عوادى خصومهم ، ومن هنا قالوا : بضرورة رد

---

(١) لقد سبقت السنة النبوية المطهرة ديكارت ، حيث أكد الحديث الشريف " أن الله صانع كل مصنوع وصنعته " ، راجع الحاكم النيسابوري ، المستدرك على الصحيحين ، جـ١ ، ص٨٥ ، كتاب الإيمان .

(٢) ديكارت ، التأملات ص١٦٣ ، ترجمة الدكتور عثمان أمين .

(٣) نعتقد نحن المسلمين أن وجود الله جل علاه ، عقيدة فطرية لا يجوز التنازل أو التخلي عنها ، أما الفلاسفة والمفكرون غير المسلمين فإنهم يعتبرونها فكرة ، وبالتالي فإنها تتساوى مع أي لون معرفي من حيث قبولها للحكم عليها بالصواب أو الخطأ وهو مما نرفضه نحن المسلمين ؛ لأن وجود الله تعالى هو حقيقة الحقائق .

(٤) ديكارت ، التأملات ، ص١٦٣ ، ترجمة الدكتور عثمان أمين .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الحقائق كلها إلى العلم الإلهي [١] ، وهو الذي يـزود الإنسان بالحقائق الثابتة[٢] .

وقد بذل ديكارت جهداً كبيراً في المسألة حين قرر " أن الطفل لا يولد إلا وقد زوده الله بالحقائق الثابتة والمبادئ العامة " [٣] .

ومن ثم يتضح أن ديكارت من أنصار القـول بمصـاحبة الأفكـار الفطرية لعملية التكوين الجنيني للإنسان داخل رحم أمه ، فلا هـي سـابقة عليه، ولا هي متأخرة عنه ، إنها كالمرآة الكاشفة التي تبين للسـائر فـي طريق ما وجه الانحراف فيه ، حتى يتفاداه ويقي نفسه شرور أخطاره .

لقد كان ديكارت حريصاً على إبراز تلك الأفكار الفطرية، لا لكونها من وجهة نظر اللاهوتين مقبولة، ولكن لأنه هو أيضاً قد رأي أن القول بها يمثل فكرة صحيحة ، ودليل ذلك:

أنه لم يجعل الأفكار باعتبار القسمة نوعين أو قسمين ، وإنما جعلها ثلاثة ، فالحصر مقصود لديه ، والدافعية مستقرة فـي وجدانـه ، بـل إن اعتقاده في وجود الأفكار الفطرية مصاحبة للإنسان منذ ولادته قد كشف وجه الصواب في المسألة ، وبين له إمكانية الاستدلال على وجود الله تعالى به من خلال فكرتي الصدق والضمان الإلهين ، فما دام الله صادقاً ، فـإن الأفكار الفطرية التي مصدرها الله تكون صادقة ، ولما كانت من عنـد الله أتيه فهو الضامن لها [٤] .

---

(١) العلم الإلهي عندنا نحن المسلمين صفة أزلية قديمة قائمة بذاته تعالى ، يتعلق بها انكشاف الممكن انكشافاً تاماً ، فهي صفة احاطة وانكشاف .

(٢) لا شك أن الحقائق الثابتة هي المعبر عن الأفكار الفطرية ، فكل فكرة فطرية إنما هي حقيقة أساسية .

(٣) ديكارت ، التأملات ، ص١٦٣ .

(٤) وقد كثر الحديث في مؤلفات ديكارت حول فكرتي الصدق والضمان الإلهين ، وبهذا يثبت وجود أفكار فطرية مصاحبة للإنسان منذ ولادته .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وفي هذا إقرار بوجودها ، واعتراف صريح بالدور الذي تلعبه بالنسبة للمعرفة الإنسانية على وجه العموم .

لقد اعتبر ديكارت أن الأفكار الفطرية بمثابة الدليل على وجود الله، من حيث أنها قاعدة عامة يتساوى فيها كل الناس ، فهي التي تمهد العقل للاستعمال، ويشهد بها الوجدان ، وتحكم بوجودها " قوة الإصابة في الحكم، وتمييز الحق من الباطل، وتتساوى بين كل الناس بالفطرة "[١].

لقد كان ديكارت واضحاً حين ألمح إلى أن التمييز بين النفس والبدن إنما هو جزء من الأفكار الفطرية ، وأعاد الكرة على نفس الفكرة مرات عديدة بدليل : أنه قرر وجود علاقة بين النفس والبدن ، أثبت من خلالها نقطة التلاقي، وهي أنا أفكر فأنا موجود .

ولما كان الفكر يمثل الجانب الخفي من الإنسان ، والبدن يمثل الجانب الظاهر، ولا يمكن فصل أحدهما عن الآخر بطريق السبق على ناحية التقدم أو التأخر ، فقد بات من الضروري القول بأن ديكارت يعتقد بوجود الأفكار الفطرية، مقارنة للإنسان منذ طفولته أو خلاياه الأولى .

يقول ديكارت: " بينما كنت أريد أن أعتقد أن كل شيء باطل، فقد كان حتماً بالضرورة أن أكون صاحب هذا التفكير[٢] شيء من الأشياء لما انتبهت إلى هذه الحقيقة، أنا أفكر فإذن أنا موجود، فقد كانت من الثبات والوثاقة بحث لا يستطيع اللاأدريون زعزعتها"[٣].

---

(١) ريليه ديكارت ، مقال عن المنهج ، ص١٦١، ترجمة الأستاذ / محمود محمد الخضيري ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ، طبعة ١٩٨٥م ، وهو وإن كان منطوق عبارته يتعلق بالعقل ، إلا أن مقتضى العبارة ينحو إلى الفكر وهي مسألة مهمة جداً .

(٢) وبالتالي فالتفكير غير صاحبه ؛ لأن الأول يمثل العملية العقلية ، بينما الثاني هو الذات العارفة ، فكل منهما غير الأخر تماماً ، وكلاهما غير البدن الذي يمثل الهيكل الجسماني .

(٣) رينيه ديكارت ، مقال عن المنهج ، ص٢١٤ ، ترجمة محمود محمد الخضيري .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وإذا كنت قد ألمحت إلى أن ديكارت من أنصار الرأي القائل بأن الإنسان تولد أفكاره معه ، وقدمت وجهة نظره في المسألة ، فإني أشير إلى أنه لم يكن وحده في الميدان ، وإنما تبعه غيره ، سواء أكانت هذه المتابعة على نفس الجهة، أم اختلفت الطريقة المعبرة ، وكان بين هؤلاء اسبينوزا، وليبنتز.

ب- اسبينوزا :

يذهب اسبينوزا إلى أن الأفكار الفطرية تولد مع الإنسان، ولا يفترق جسده عنها ؛ لأنهما معاً من عند الله جاءا، فكما أن البدن يمثل القوة البدنية، فإن الأفكار الفطرية تمثل القوة الفكرية ، ويقرر الأستاذ يوسف كرم هذه المسألة عند اسبينوزا الذي جعل فكره الله هي المعلول المباشر للقوة الفكرية، فيقول:

" وما دام الله هو الذي جعل الأفكار الفطرية تمثل قوة من قوى الإنسان فإنها تكون متوازية مع البدن تماماً بتمام، لا يفترق أحدهما عن الآخر إلا في التسمية والبناء الهيكلي "(١).

ويعرض شاخت هذه المسألة لدى اسبينوزا حين يؤكد الطريقة التي يتم بها صياغة الأفكار وتقسيمها ، ويؤكد أن هذا إحدى قدرات العقل الفطرية فلم يقف عند القدرات الفطرية وحدها ، وإنما أكد على القدرات وعلى الأفكار معاً ، حيث يقول : " إن الذهن بفضل قدراته الفطرية (٢) ، يصنع لنفسه أدوات فكرية يكتسب من طريقها القوة التي تساعده على أداء العملية الفكرية الأخرى ، وتساعد هذه العمليات على زيادة القوة الدافعة في البحث إلى ما هو أبعد ، وبذلك يتحقق تقدم تدريجي يسفر عن بلوغ قمة الحكمة " (٣) .

---

(١) الاستاذ يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة الحديثة ، ص١١٣ .

(٢) هذا اتجاه جديد في الفلسفة الحديثة، يمثل انتقالاً من الأفكار الفطرية إلى القدرات الفطرية، وهذا الاستعمال يمثل صوره من التجاوز والتوسع في استخدام الألفاظ على ناحية من النواحي.

(٣) ريتشارد شاخت ، رواد الفلسفة الحديثة ، ص٨٨ ، ترجمة أحمد حمدي محمود ، ونفس هذا الرأي عن اسبنوزا أيضاً جون هرمان راندال ــ جوستاس بوخلر ، مدخل إلى الفلسفة ، ص٩١ ــ ترجمة الدكتور ملحم قربان .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويلاحظ أن اسبينوزا قد طور في الاستعمال اللغوي ، فبدل من ان يعارض مخالفيه ويتمسك بكونها أفكارا فطرية ، نراه يغير في الاستعمال اللغوي بحيث يتفق مع المنهج العام بالنسبة له ؛ لأن كلمة قدرات فطرية لا تختلف كثيراً عن أفكار فطرية من حيث الدلالة ، وإن اختلف عنها من حيث المنطوق[1] .

أجل يمكن القول بأن اسبينوزا قد أخذ منطق الألوهية، واستدل به على وجود الإله بالضرورة العقلية، ثم أردف هذا الوجود بالوحدانية ، غير أنه قد فاته الانفلات من دائرة التجسيد فوقع في وصفه بأنه كائن ، فكان هذا بمثابة الصورة الإلحادية التي لازمته وجرت على ألسنة خصومه؛ لكن الذي يعنينا من اسبينوزا هو وقوعه مرة أخرى في دائرة الحلول والاتحاد الفلسفي ، حين اعتبر جميع الأشياء كامنة في الله، وليست مخلوقة لله ، وهذا في حد ذاته ينفي عن الله جل شأنه القدم والوحدانية والإرادة والعلم ، وسائر صفات الجلال، والكمال[2].

يقول اسبينوزا: " نحن جزء من طبيعة كلية ، ونحن نتبع نظامها، وإذا كان لدينا فهم واضح متميز لهذا، فذلك الجزء من طبيعتنا المعروف بالذكاء "[3].

لقد كان اسبينوزا على وعي تام بترتيب الأفكار الذهنية ، ولكنه عندما تعرض لطبيعة الأفكار الفطرية تغلبت نزعته على عقليته ، فوقع في

---

(١) اختلاف الدلالة عن المنطوق يمثل اختلافا لفظيا ما دام المعنى المتفق عليه واحد ، وهم مشتركون في أن الأفكار الفطرية أو القدرات الفطرية إنما تمثل واقعا وعاملا مساعدا في أداء العلميات الفكرية الأكثر رقياً .

(٢) لأن القول باعتبار جميع الأشياء كامنة في الله يفسر ظاهرة الكمون التي قال بها اليونان قديماً ، فيكون الله فاعلا بالفيض أو الصدور رغما عنه لا بإرادة منه .

(٣) برتراند رسل ، تاريخ الفلسفة الغربية (الكتاب الثالث) الفلسفة الحديثة ص١٢٨ ، ترجمة د محمد فتحي الشنيطي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٧م .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وهدة من حيث كان يريد علو الرفعة وهو من طبيعة الفكر الفلسفي الذي يعتمد على هدى السماء ولا يستفيد من وحي الله للعباد.

على أن الذي يعنيني ليس هو محاكمة الفيلسوف ، إذ إن المحاكمة ليست مطلباً لي ، وإنما الذي أقصده هو التأكيد على أن الأفكار الفطرية لدى اسبينوزا كانت موجودة ومصاحبة للإنسان منذ ولادته ، وتجرى معه شطر حياته كتاريخ الميلاد تماماً بتمام، لا تنفصل عنه ولا عنها ، وإن كانت تنمو معه كلما تقدمت به الأيام، وأحس بالحرية واستعمال الفكر والانتظام .

كما يعترف بوجود هذه الأفكار الفطرية ومصاحبتها للروح في الولادة " السيرأوليفرلودج " فيقول : " إن من يميل إلى حسبان الإنسان من الكائنات المادية يخطئ في حق الله ، كما يخطئ في حق الروح البشرية فإن علاقتنا بالمادة شيء — في الحق — ثانوي جداً ، وصلتنا بالروح هي الصلة الفطرية الأولى ، فإننا بلا ريب مخلوقات روحية شغلتنا المادة عن الحقيقة الواضحة"(١).

الرأي الثالث : أصحاب القول بتبعية الميلاد :

ذهب أصحاب هذا الرأي إلى أن منشأ الأفكار الفطرية الاستعدادات الإطارية التي تكون في ملكة العقل ، ومن ثم فليست قوة في الذرات الروحية سابقة على وجود الإنسان ، كما هو الظاهر أصحاب الرأي الأول ، وليست أيضاً بنية تنمو داخل الإطار الهيئ للإنسان أثناء التكوين الرحمي، كما هو رأي الفريق الثاني ، ومن ثم حاول العقليون إصباغ مصطلح الحدس العقلي على هذا الرأي تميزاً له الرأيين السابقين .

وها أنذا أعرضه .

---

(١) طه عبدالباقي سرور ، شخصيات صوفية ، ص٩ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أولاً: في الدين :

استدل أصحاب هذا الرأي بما يلي :

١- وجود ظواهر نقلية تدل على وجود أفكار فطرية، في هيئة قوى واستعدادات في ملكة العقل مثل قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾[١] .

ويعتمدون على ما ذهب إليه بعض المفسرين على فهمهم لهذه الآية الكريمة من أن التقويم يشمل تمام الخلقة، وتمام الخلق ، وكمال النفس وتمام العقل والاستعداد لتلقي ما يمكن أن يفاض على العبد من منح المولى عز وجل.

يقول العلامة السعدي : " لقد خلقنا الإنسان تام الخلقه متناسب الأعضاء، منتصب القامة، لم يفتقد مما يحتاج إليه ظاهراً وباطناً شيئاً ، فبهذه النعم العظيمة ينبغي له القيام بشكرها"[٢]. وهو معنى قوله تعالى : ﴿في أحسن تقويم﴾ .

ولما كان هذا التقويم يشمل الباطن من قوى النفس ، فقد دل الأمر على أن الأفكار الفطرية تأتي المرء بعد ولادته ، ويكون هذا الإتيان بمثابة إعلان عن قيامها بالأعباء المنوطة بها ، وبالتالي يمكن فهم هذا الجانب على أنه قد جاء باعتبار الوظيفة الأساسية التي هي للأفكار الفطرية .

ويؤكد هذه الوجهة ما ذهب إليه العلامة " البروسوى " في معنى الآية الكريمة أيضاً حيث قال : " إن التقويم هو تصير الشيء على ما ينبغي لن يكون عليه في التأليف والتعديل"[٣].

---

(١) سورة التين الآية : ٤

(٢) العلامة الشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي ، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، ص١٠٣٠ .

(٣) الشيخ إسماعيل حقي البروسوي ، تنوير الأذهان من تفسير روح البيان ، م٤ ، ج٣٠ ، ص٥٦٧ ، طبعة دار الصابوني بالقاهرة .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ومن ثم فقد كانت الأفكار الفطرية مما يتم تصويره في العقل الإنساني، ويدخل في معنى قوله تعالى : ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾[١] .

ولم يقف أصحاب هذا الرأي على دليل الآية السالفة وحدها ، وإنما ضموا إليه أدلة نقلية أخرى منها قوله تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾[٢] .

حيث فهموا أن الإلهام الذي يكون للنفس، إنما هو بسبب الاستعدادات للكمالات، وبالتالي تكون الأفكار الفطرية مما يتعلق بالإلهام، أو الإلقاء في الروع .

ويؤكد هذا المعنى العلامة الزمخشري حيث يقول : ومعنى " إلهام الفجور والتقوى إفهامهما وإعقالهما ، وأن أحدهم حسن، والآخر قبيح، وتمكينه من اختيار ما شاء منهما بدليل قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾[٣] .

وقد ارتضى الإمام الرازي هذه الفكرة ونقلها فقال : " إن إلهام الفجور والتقوى ، إفهامهما وإعقالهما ، وأن أحدهما حسن والآخر قبيح وتمكنيه من اختيار ما شاء منهما ، وهو كقوله ﴿ وهديناه النجدين ﴾ ، ثم قال وهذا مطابق لتأويل المعتزلة "[٤] .

مما سلف يتضح أن الأفكار الفطرية لدى هذا الفريق، تتمثل فيما الاستعدادات التي تكون قابلة لأن يصدر عنها الخير أو لأن يصدر عنها الشر في الأفهام والعقول ؛ لأنها الأصل ، ثم تأتي بعد ذلك الأعمال التي

---

(١) سورة التغابن الآية : ٣

(٢) سورة الشمس الآيتان : ٧- ٨

(٣) العلامة الزمخشري ، الكشاف ، م٤ ، ص٧٥٩ ، طبعة دار الريان .

(٤) الإمام الرازي ، مفاتيح الغيب ، م١٦ ، ج٣١ ، ص١٩٣ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هي بمثابة الترجمة لها ، أو التطبيق العملي الذي يقوم بعرض النظريات وتحويلها إلى عمليات .

ويستدل على هذا المعنى بما ذهب إليه " صاحب تنوير الأذهان " من قوله : " والمعنى أفهم النفس إياها ـ الفجور والتقوى ـ وعرفها حالهما من الحسن والقبح ، وما يؤدي إليه كل منهما، ومكنها من اختيار أيها شاءت"(١).

وقد فهم البعض من أصحاب الأذواق، أن الإلهام إنما ينصرف للخبرات، ولا ينصرف للشرور ، وهم أرادوا المعنى الاصطلاحي، لا المنطوق اللغوي ، أما الآية الكريمة فقد جاء فيها لفظ الإلهام على المنطوق اللغوى، من حيث إن أفعال الله تعالى حسنة كلها .

وقد حاول القاضي عبدالجبار إبراز الجانب الاعتزالي في منطقه إلهام الله النفوس الفجور والتقوى ، ثم انتهى إلى ضرورة التفرقة بين أن يكون كل من الفجور والتقوى مخلوقان في النفس ، أو أن تكون معرفة الفجور أو التقوى هي الموجودة في داخل النفس ، وانتهى إلى تأكيد الرأي الثاني طبقاً للمعنى الاعتزالي (٢) .

يقول: "لا يصح أنه تعالى خلق فيهما الفجور والتقوى؛ لأن ظاهره يقتضي أنه تعالى أعلمها أو دلها على الفصل بين التقوى والفجور، والطاعة والمعصية، لكي يجتنب المعاصي، ويقدم على الطاعة وهو الذي نقوله "(٣).

فواضح أن المعتزلة مما يقولون بالأفكار الفطرية ، وأنها تمثل صورة معرفية ، وترد على النفس بعد الولادة ، إذ أن كلمة الخلق لا تنطبق

---

(١) الشيخ اسماعيل حقي البروسوي ، تنوير الأذهان ، م٤ ، ج٣٠ ، ص٥٥٤ .

(٢) إذاً هناك فرق بين كون الفجور والتقوى يعرفان بذاتهما، أو أن يخلقا في النفس على هيئتهما ، والمعتزلة يؤكدون على الأول .

(٣) القاضي عبدالجبار بن أحمد الهمداني ، متشابه القرآن ، القسم الثاني ، ص٦٩١ ، تحقيق الدكتور عدنان محمد زرزور ، طبعة دار التراث بالقاهرة ، سنة١٩٦٩م .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إلا على الشيء التام والآيات القرآنية جاءت من ذات الطريق في قوله تعالى: ﴿ لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾(١).

ويقرر الإمام الرازي وجهة نظره كأشعري في معنى الآية ، ثم يربطها بما هو دائم في الأفكار الفطرية ، مبيناً أن طريق ذلك هو النقل تارة، والعقل أخرى ، وانتهى إلى أن الأفكار الفطرية تقع في النفس الإنسانية بقضاء الله وقدره وهو " فعال الحيوانية الاختيارية " ثم يقول " لن ذلك أيضاً منه وبقضائه وقدره ، وحينئذ ثبت أن كل ما سوى الله فهو واقع بقضائه وقدره ، وداخل تحت إيجاده وتصرفه " .

ويؤكد نفس الفكرة عن طريق العقل حيث ينتهي إلى أن المراد بقوله تعالى :(فألهمها فجورها وتقواها) ، هو الخذلان والتوفيق " (٢) .

والذي يعنينا هنا هو توافق الأشاعرة والمعتزلة على أن الأفكار الفطرية معرفية من حيث هي، وأنها تأتي العبد لا قبل ولادته ولا أثناءها ، وإنما حينما يصير مخلوقاً متكاملاً (٣).

٢- كذلك استدلوا عليها بالمعارف العقلية ودليل ذلك: ما ذهب إليه مفكروا المسلمين من وجود هذه الأفكار في صورة استعدادات كامنة في النفس تخرج إلى الفعل بواسطة استخدام الآلات الحسية .

ومن بين العلماء الذين قالوا بذلك الإمام الغزالي حيث ذهب إلى أن الأفكار الفطرية مركوزه في النفس على سبيل الاستعداد الغريزي فقال :'

---

(١) سورة التين الآية : ٤

(٢)الإمام الفخر الرازي ، مفاتيح الغيب ، م١٦ ، ج٣١ ، ص١٩٤ .

(٣) وخلاف المعتزلة والأشاعرة في قضية التوفيق والخذلان وارتباطهما بالأفعال الإلهية أو القضاء والقدر ليس مجاله هنا ، ومن ثم فلا ألتفت إليه .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وهذه العلوم كأنها متضمنة في تلك الغريزة بالفطرة ، ولكن تظهر في الوجود إذا جرى سبب يخرجها إلى الوجود ، حتى كأن هذه العلوم ليست بشيء وارد عليها من خارج ، وكأنها كانت مستكنة فيها ، فظهرت ، ومثاله: الماء في الأرض، فإنه يظهر بحفر البئر ، ويجتمع ويتميز بالحس، لا بأن يساق إليها شيء جديد ، ولذلك قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتَ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى﴾(١) " فالمراد به إقرار نفوسهم لا إقرار الألسنة " (٢) .

وهذا يعني – من وجهة نظر الإمام الغزالي– أن كل إنسان فطر على معرفة الله تعالى ، وكذلك العلوم الأولية ، بل وعلى معرفة الأشياء على ما هي ، ولكنها كالمضمنة فيها لقرب استعدادها للإدراك فيقرر ذلك بقوله: " والعلوم مركوزه(٣) في أصل النفوس بالقوة كالبذر في الأرض، والجوهر في قعر البحر، أو في قلب المعدن ، والتعلم هو طلب خروج ذلك الشيء من القوة إلى الفعل" (٤).

وهذا ما ذهب إليه علماء الأخلاق، حيث قرروا أن " أصل الفطرة عبارة عن استعداد أو قوة دافعة لمعرفة الخالق وتقديسه، وللتمييز بين ما هو خير، وما هو شر من السلوك "(٥).

وبذلك تمثل الأفكار الفطرية الاستعداد لتلقي الإدراك، بحيث تجتمع

---

(١) سورة الأعراف الآية : ١٧٢

(٢) الإمام الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج١ ، ص١٦٠ .

(٣) أي مفطورة في النفس وكامنة فيها منذ الخلقة ولكنها تعبر عن نفسها فيما بعد .

(٤) الإمام الغزالي ، الرسالة اللدنية ، مجموعة رسائل الغزالي ، ص٢٤٧– ٢٤٨ .

(٥) مقداد يالجن ، الاتجاه الأخلاقي في الإسلام (دراسة مقارنة) ص١٨٧ ، الطبعة الأولى ، ١٣٩٢هـ ، ١٩٧٣م ، مكتبة الخانجي بمصر .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الملكة والآله معاً في الواقع وذلك بعد الولادة ، ولذا تكون الأفكار الفطرية لاحقة الإنسان بعد ولادته ، بدليل أن غرائزه ودوافعه تتمثل فيه منذ أول يوم تمس بنيته عالم الواقع الحسي ؛ كطريقة الرضاعة ، وعمليات التنفس ، واستقبال الحاجيات الضرورية وإخراجها ، وجملة ما يتعلق بالدوافع والانفعالات "(١).

ثانياً : في الفلسفة :

ذهب بعض الفلاسفة إلى اعتبار منشأ الأفكار الفطرية راجعا إلى استعدادات عقلية يطلق عليها الحدس العقلي، بناء على فهمهم له بأنه : نور فطري غريزي .

ويعرف الدكتور " إبراهيم مدكور " الحدس عند العقلين بأنه هو : " ذلك النور الإلهي والغريزة العقلية التي نستطيع أن ندرك بها الأفكار البسيطة، كالامتداد والحركة ، أو الحقائق الثابتة مثل " أنا أفكر وأنا موجود " ، أو الروابط بين قضية وأخرى "(٢) .

---

(١) الفرق بين الدوافع والانفعالات هو أن الدوافع هي عبارة عن علاقة بين المثير والاستجابة ، وقد تكون هذه العلاقة بسيطة ومباشرة ، وقد تكون معقدة وغير مباشرة، ويطلق على العلاقات البسيطة تعبير المحرك ، وعلى العلاقات المركبة تعبير الدافع ، ويعبر الدكتور أحمد فائق عن كيفية نشأة الدافع فيقول : تنشأ الاستجابة لدى الإنسان نتيجة لتوتره وفقدانه اتزانه، وعندما يصل إلى أمر معين يندفع الشخص إلى محاولة خفض التوتر فإن كان سبب التوتر بيولوجيا تحرك الإنسان دون وعي إلى مصادر حاجته ، ولكن تحركه يجعله يعي ما يحتاجه فتتحول الحاجة إلى رغبة، ويصبح سلوكه مدفوعاً بتلك الرغبة " . والدوافع قسمان: دوافع أولية (بيولوجية) مثل الوراثة ، وحاجة الأعضاء ، ودوافع مكتسبة (نفسية) .
أما الانفعال : فهو حركة حبيسة في الداخل ، أو بعبارة أخرى : إن الانفعال لا يزيد عن كونه وجدانا حبيسا ، ويقع تحت ضغط ــ خارجي أو داخلي ــ انطلق محطماً هذا الضغط ومحركاً للإنسان بعيداً عن الألم تجاه اللذه ، راجع الدكتور أحمد فائق ، مدخل إلى علم النفس ، ص٢٣١-٢٦٠ بتصرف .

(٢) الدكتور إبراهيم بيومي مدكور ، الأستاذ يوسف كرم ، دروس في تاريخ الفلسفة ص١١٨، المطبعة الأميرية القاهرة ، ١٩٤٩م .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والدارس للتراث الإنساني القديم يمكنه الوقوف على بوادر عقلية، ومنذرات فكرية، تحدث أصحابها عن الأفكار الفطرية ، ومن هؤلاء أصحاب الفلسفة الرواقية الذين يقررون أن النفس الإنسانية تكون كاملة في داخل المرء ، ثم تأخذ في التدرج ناحية التعبير عن ذاتها، وهي في ذات الوقت مبدأ الحياة عند الإنسان، كما أنها أساس حركاته وأفكاره ، ثم إن هذه النفس تنتظم ثمانية أجزاء لكل جزء مكان ووظيفة (١) .

وهذه الأجزاء الثمانية تتمثل فيها جوانب عديدة، تنتهي إلى اتصال بعضها بالبعض عن طريق القلب الذي يتحول مع هذا المجموع إلى أن يكون مصدر الأفكار والإحساسات ، بل والمعبر عن إنية الشيء نفسه (٢) .

ويقرر الرواقيون أن كل مولود حينما يولد يكون فيه جزء معبأ بالأفكار الفطرية، وجزء يشبه الصفحة البيضاء التي لم يكتب عليها شيء(٣)، ولأن العقل عندهم هو الله خالق العالم فهو في ذات الوقت نفس جوهر العالم وحقيقته ، ومن ثم قالوا إن العالم هو جوهر الله ، وبناء عليه كان الله والطبيعة إسمان يدلان عندهم على حقيقة شاملة واحدة(٤) .

ولكن كيف توجد الأفكار الفطرية ؟

يقرر الرواقيون أن نفس الطفل تنطبع فيها جملة من الإحساسات،

---

(١) خمسة أجزاء للحواس ، وجزء للتناسل ، وجزء للنطق والتفكير ، وجزء للرياسة والتدبير ، فهذه جملة الثمانية ، الدكتور عثمان أمين ، الفلسفة الرواقية ، ص١٨٧ ، مطبعة النهضة المصرية .

(٢) فالانية هي جملة الظواهر النفسية والشعور بالذات حينما يقول الإنسان أنا مثلا ، وبالتالي صارت الانية هي المعبر الأساسي عن الإنسان ، وهي في ذات الوقت مصدر الشعور والوجدان .

(٣) يختلف الرواقيون في تحديد أي من الجزئين اختلافاً كبيراً، إذ أن بعضهم يميل إلى تغليب مساحة العقل البيضاء ، ويميل آخرون إلى تغليب مساحة الأفكار الفطرية .

(٤) راجع للدكتور عثمان أمين ، الفلسفة الرواقية ، ص١٦٩ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التي تمثل ملامح ذكريات، تكون لديها استعداد للتعامل مع ما يرد عليها من التربية والتعليم، أو المجهود النفسي الفردي ، وبعضها قد يكون مصدره الطبيعة والفطرة، ثم يقررون : " أن الأفكار التي مصدرها الطبيعة تسبق كل تجربة، وتسمى لذلك بالأوليات [١] ، أو الآراء الفطرية ، والعقل البشري مجموع هذه الأفكار "[٢].

وقد أسرع البعض[٣] إلى الحكم على الرواقين بأنهم ينكرون وجود الأفكار الفطرية اعتماداً على تخليتهم جزء من العقل لتخط فيه المعارف المكتسبة ، بينما نظر إليهم آخرون على أنهم يقرون بالأفكار الفطرية ، نظراً لاعتماده على جزء آخر من الفكرة المطروحة عندهم .

وممن تأثر بهم على جانب إثبات الأفكار الفطرية من الفلاسفة المحدثين ديكارت .

وقد ذهب الدكتور عثمان أمين إلى التأكيد بأن ديكارت قد تأثر بالأفكار الفطرية على النحو الذي قالوا به ، وإن كان قد أطلق عليها اسم نظرية المعاني الفطرية، وسجلها في كتابه الخطرات الخاصة فيقول : " وورث نظرية المعاني الفطرية على لسان ديكارت حاملة طابع أصلها الرواقي، أضف إلى هذا أن تلك النظرية كانت ذائعة أيام ديكارت في الأوساط الفلسفية والدينية ، وعند جماعة الأخلاقيين من المشتغلين بإعادة مذاهب الرواقية وصبغها بصبغة مسيحية ، وقد عرف ديكارت مذاهبهم وتأثر بها

---

(١) الأوليات قضايا مسلمة تأتي أدلتها معها ، وعرف الجرجاني الأولى بأنه هو الذي بعد توجه الذ إليه لم يفتقر إلى شيء أصلاً من حدس أو تجربة أو نحو ذلك ، كقولنا الواحد نصف الشيء والكل أعظم من جزئه ، فإن هذين الحكمين لا يتوقفان إلا على تصور الطرفين ، وهو أيض من الضروري مطلقاً ، العلامة السيد الشريف الجرجاني ، التعريفات ، ص٣٣ .

(٢) الدكتور عثمان أمين ، الفلسفة الرواقية ، ص١٦٨ .

(٣) راجع قصة الفلسفة اليونانية ، أحمد أمين ، زكي نجيب محمود ، ص٢٣٥ ، الطبعة التاسعة ، مكتبة النهضة المصرية ، طبعة ١٩٨١م .

ويشهد بذلك شهادة قاطعة ، رسائله إلى الأميرة إليزابث كما أن من المؤرخين من يذكر أن ديكارت خالط الكاردينال دوبيورل مؤسس الأرتوار وتلميذه جويف، وهما من أوائل رجال الدين الذين اعتنقوا هذه النظرية" (١) .

أضف إلى ما سبق ما تردد في الرواقية من أن نور الفطرة يمثل الكنز الثمين الذي يجب أن يسطع في الأوقات العصيبة ، ويتحول إلى نور عقلي يدل الإنسان على الخير والفضيلة ، ويؤثره على الرزيلة ، وهو نفس الاتجاه الذي مال إليه ديكارت وأكد عليه .

فمثلاً نرى ديكارت يقول : " إن النور الفطري يرشدني إلى أن أعرف معرفة بديهية، أن الأفكار في نفسي أشبه بلوحات أو صور ، يمكن أن تقصر عن محاكاة كمال الأشياء التي أخذت عنها "(٢).

ومما يؤكد هذا الاتجاه التأثيري أيضا ما نقل عن أن العقل الصريح تعبير مشهور استعمله الرواقيون القدماء (٣) ، واستعمله " سنكا " في أغلب الأحيان ، كما استعمله الرواقيون في عصر النهضة ولا سيما " جوست ليبس" عند الكلام على نظرية المعاني الفطرية (٤) .

وإذا كان " ديكارت " يصرح: " بأن فينا بذور العلم كالنار في الحجر الصوان، وأن الفلاسفة يتعهدونها بقدح العقول والأذهان، فإن جوست

---

(١) الدكتور عثمان أمين ، الفلسفة الرواقية ، ص٣٣٥ .

(٢) ديكارت ، التأملات (التأمل الثالث) ، ص١٤٧-١٤٨ ، ترجمة الدكتور عثمان أمين .

(٣) يذهب الكثير من الدارسين إلى تقسيم الرواقية باعتبارات مختلفه ، فمنهم من ينظر إليها باعتبار المنشأ القديم ، حيث قامت في بلاد اليونان قبل ميلاد المسيح بثلاثة قرون ، ومنهم من ينظر إليها باعتبار الأثر فيجعلها في البلاد الأوربية ، كما هي في البلاد اليونانيه تماما بتمام ، راجع تفاصيل ذلك في ، الفلسفة الرواقية ، الدكتور عثمان أمين ، حيث كرر ذلك في صفحات كثيرة .

(٤) فنظرية المعاني الفطرية هي ذاتها نظرية العقل الصريح ، وهي نفسها نظرية الأفكار الفطرية ، ولكن الخلاف في الترجمة ، وبيان تأثير اللاحق بالسابق .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نيوتن الروائي قد قال من قبل بأن نفوسنا شبيهة بأوراق وبذور، وتسرع إلى الفضيلة " (١) .

وممن سارع إلى الاعتداد بإنكارهم الأفكار الفطرية لوك وهيوم ومن تابعهم ، حيث تبنوا جزءاً من النظرية الرواقية ، وتركوا جزء آخر ، لأن الرواقيين كانت النظرية عندهم تقوم على جانبين الأول : الاستعدادات الذاتية التي تمثل المعاني الفطرية ومن هنا تبناها المثبتون ، مثل ديكارت ومن معه . الثاني : وهو المساحة العقلية حيث يكون الذهن كالصفحة البيضاء، التي تكون مستعدة لتقبل ما يخط عليها ، ومن ثم فقد نظر المنكرون إلى الصفحة البيضاء ، وهي الجانب الثاني من النظرية كالحال مع هيوم ولوك وباركلي.

ومما يؤسف له أن البعض قد يسارع إلى تبني الجانب الثاني من النظرية وينسبه للرواقية، كما فعل صاحب قصة الفلسفة اليونانية ، حيث ذهب إلى " أن نفس الطفل عند ولادته تكون صفحة بيضاء خالية من كل أثر وصورة ، ثم لا تلبث أن تتوارد على حواسه آثار منبعثة من الأشياء الخارجية، فتتطبع صورها في لوحة الذهن، كما تتطبع صورة الختم على قطعة الشمع "(٢).

وفي تقديري أنه إذا جمع بين طرفي النظرية، تحققت مصلحة أكبر للنظرية نفسها ، ولمن يتابعونها ، وفي نفس الوقت ترفع القصور عن أصحاب ذلك الفكر، طالما لم يكونوا قد وقعوا فيه .

أما ليبنتز فإنه يذهب إلى أن الأفكار الفطرية تكون للمرء بعد ولادته ، وتتمثل في جملة كبيرة من الذبذبات الهوائية، التي تعبر عنها فيما بعد ملكات الشم والذوق واللمس ، بجانب عدد آخر غير مدرك تظل الأحداث المتطورة هي التي تكشفها وتعبر عنها .

---

(١) الدكتور عثمان أمين ، الفلسفة الرواقية ، ص٣٣٧ .

(٢) الدكتور أحمد أمين ، والدكتور زكي نجيب محمود ، قصة الفلسفة اليونانية ، ص٢٣٥-٢٣٦ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويقرر أن الأفكار الفطرية عبارة عن واسطة بين الأعضاء والذاكرة، فالأعضاء الهيكلية لا تدرك بذاتها ، وإنما تدرك من خلال وسيط ، والذاكرة هي الأخرى لا يقع لها الإدراك المباشر من ذاتها ، وإنما عن طريق وسيط، هذا الوسيط هو الأفكار الفطرية .

يقول ليبنتز : " إن الذاكرة تمد النفوس بنوع من الاستنتاج الذي يحاكي العقل وإن وجب تميزه عنه "(١) .

ويفرق بين التصور الحسي القائم على أفكار فطرية ، وبين التصور العقلي القائم على مبدأ الذاكرة ، وهذه التفرقة أدت به إلى إعلان وجود حقائق ضرورية ، وهي في ذات الوقت أبدية تميز الإنسان عن باقي المخلوقات الأخرى ، ويؤكد أن معرفة الحقائق الضرورية والأبدية تمثل الصور الواضحة للأفكار الفطرية(٢) .

ويقرر أيضاً أن هناك فاصلاً بين منشأ الأفكار الفطرية ، وبين الحكم على صحة هذه الأفكار ، فيرجع المنشأ إلى الحقائق الضرورية الأبدية، التي تميز الإنسان عن الحيوانات الخالصة فيقول : " وبها نحصل على العقل ونتزود بالعلوم ، وذلك حين ترفعنا إلى المعرفة بأنفسنا وبالله ، وهذا هو ما يسمى فينا بالنفس العاقلة أو العقل " (٣) .

كما بين الحكم على صحة هذه المعرفة من عدمه ، ولا يكون ذلك إلا بالتجربة، نظراً لاعتماده على مبدأين أساسيين في ضبط المعرفة العقلية. أحدهما : " عدم التناقض "(٤) : " وبفضله نحكم على كل ما ينطوي على

---

(١) ليبنتز ، المونادلوجيا ، ص١٣٩ -١٤٠ ، ترجمة د عبدالغفار مكاوي .

(٢) وبالتالي فهو يقسم المعرفة إلى قسمين : أحدهما فطري ، والآخر عقلي ، ثم ينظر إلى العقلي على أساس أنه مفطور هو الآخر ، فكأن الأفكار الفطرية لدية ضرورية ، وأبدية بحكم الطبيعة الإنسانية .

(٣) ليبنتز ، المونادلوجيا ، ص١٤٣ ، ترجمة د عبدالغفار مكاوي .

(٤) هو أحد قوانين الفكر الأساسية وهي الذاتية، والغيرية، وعدم التناقض أو الثالث المرفوع.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يناقض ، وبالصدق على ما يضاد الكذب أو يناقضه ، وثانيهما : مبدأ السبب الكافي ، وبه نسلم بأنه لا يمكن التثبت من صدق الواقعة أو وجودها، ولا التثبت من صحة عبارة من غير أن يكون ثمة سبب كاف يجعلها على هذا النحو دون غيره "(١) .

ومن ثم فقد اتضح أن ليبنتز من القائلين بالأفكار الفطرية على نحو يتفق مع اتجاهه المعرفي ، ولا يطعن عليه بما ذهب إليه البعض من أنه كان يؤمن بالفلسفة التجريبية ، والشائع عدم اعترافهم بالأفكار الفطرية ، نظراً لوجود فوارق عديدة بين الحديث عن منشأ الأفكار الفطرية، ووسائل التعبير عنها ، وطرائق الحكم عليها ، وبين الحكم على صحتها .

ويبدو لي أن ليبنتز يتفق مع العقليين في الإقرار بوجود أفكار فطرية من حيث المنشأ ، ويتفق مع التجريبيين في الحكم عليها من خلال التجربة التي تشهد بصحة وقوعها أو كذب ما يترتب عليها ، يقول ليبنتز : " ونحن في ثلاثة أرباع تصرفاتنا لا نزيد عن كوننا تجريبيين ، فإذا ما توقعنا مثلاً أن يطلع النهار في صباح الغد، كنا في مسلكنا هذا تجريبيين ؛ لأن هذا هو الذي حدث حتى الآن"(٢) .

كما نادى " جان جاك روسو " بوجود أفكار فطرية متمثلة في الضمير الأخلاقي منذ ولادته ، وهو بمثابة قوى واستعداد يوجه الإنسان إلى أفعاله .

يقول روسو : " إن الفرد يملك ضميراً أخلاقياً يحمله منذ ولادته ، وأن أفراد الحيوان تملك غريزة فطرية توجهها وتقودها ، ثم إن الناس من الناحية الخلقية مزودون بتلك الغريزة الفطرية "(٣).

---

(١) ليبنتز ، المونادلوجيا ، ص١٤٣ ، ترجمة د عبدالغفار مكاوي .

(٢) ليبنتز ، المونادلوجيا ، ص١٤١ ، ترجمة د عبدالغفار مكاوي .

(٣) أندرية كرسون ، الأخلاق في الفلسفة الحديثة ، القسم الثاني من " المشكلة الأخلاقية والفلاسفة " ص٥٧ ، ترجمة الدكتور عبدالحليم محمود ، الأستاذ أبو بكر ذكري .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ويعتقد "عمانويل كنت" أن الأفكار الفطرية موجودة مع الإنسان بعد ولادته، ويمكن التعبير عنها من خلال معرفة قبلية ، بحيث تكون هذه المعرفة قائمة قبل معرفة الحقائق الأبدية الأخرى ، وتكون معرفة الله هي الأولية، ثم تأتي معرفة الحقائق الأبدية ، ومنها فكرتا الزمان والمكان ، تتمثل في مجموعها قاعدة بيانات احصائية، تتضبط من خلالها المعرفة اللاحقة بالأفكار الفطرية .

يقول "كنت" : " إن هناك حتى مع خبرتنا أنواعاً مختلفة من المعرفة، مختلط بعضها ببعض ، أنواعاً يجب أن يكون أصلها بديئياً ــ قبلياً ــ وهي لربما تفيد في إيجاد ترابط بين تصوراتنا الحسية ، وذلك لأنه حتى لو أزلنا من الخبرة كل شيء ينتمي إلى الحواس ، فإنه تبقى- بالرغم من هذا - معان عامة أصلية معينة "(١).

وبذلك اختلفت نظرة كنت عن نظرة أفلاطون للعالم المعقول ، حيث كان أفلاطون ينظر إلى الذهن الإلهي على أن فيه عالما معقولاً ، فلما جاء الفلاسفة المحدثون أصحاب الاتجاه المثالي ، أكدوا على أن الذهن الإلهي كامل ليس فيه غموض ، وليس محلاً للعالم المعقول ، إنما هو في ذاته يمثل مصدراً للأفكار الفطرية. ونحن من جانبنا نرفض وصف الله تعالى بما لم يصف به نفسه ؛ لأن أسماءه تعالى توقيفية ، وصفاته جل شأنه عليه، وفكرة الذهن الإلهي في الفلسفة ليست مقبولة لدينا؛ لأن الله تعالى عالم بكل شيء ، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وكل شيء عنده بمقدار .

---

(١) عمانويل كنت ، نقد العقل المجرد ، ص٤٨ ، ترجمة أحمد الشيباني .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفصل الثالث

منكرو الأفكار الفطرية وأدلتهم

ذهب فريق من الباحثين إلى أن الإنسان حينما يولد ، يكون مجرد بملكات هي رجع صدى للآلات لا علاقة لها بالمعارف ، إذ أن كل معرفة إنما ترد لاحقة ، ويكون الحس هو الوسيلة لها ، وبناء عليه انتهوا إلى عدم وجود أفكار سبقية تحت أي مسمى، ومن ثم فسأحاول عرض موقفهم على النحو التالي :

أولاً : رأي بعض المتدينين :

وقد استدل فريق من المتدينين على عدم وجود أفكار فطرية بظواهر أدلة نقلية[1] ، وأخرى عقلية ، وثالثة وجدانية ، وذلك لأنهم فصلوا بين العقيدة القلبية التي يولد المرء مزوداً بها ، وبين المعرفة الإنسانية التي ترتبط مصالحة معها برباط كسبي في صورة من الصور .

ومن أدلتهم على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [2] .

يقول العلامة الزمخشري في تفسير هذه الآية : " إنه تعالى أخرجكم من بطون أمهاتكم، غير عالمين شيئاً من حق المنعم، الذي خلقكم في البطون، وسواكم وصوركم ، ثم أخرجكم من الضيق إلى السعة ، وجعل لكم بما ركب فيكم هذه الأشياء ، آلالات ، لإزالة الجهل الذي ولدتم عليه واجتلاب العلم والعمل به من شكر المنعم ، وعبادته والقيام بحقوقه

---

(١) أقصد بظاهر النقل النصوص القطعية في وردها ، لكونها من آيات القرآن الكريم ، وليست ظنية في الاستدلال بها ، ومن ثم جاءت جهود الفريقين حولها ، واستفاد كل منهما بها في الاتجاه الذي نحا إليه .

(٢) سورة النحل الآية : ٧٨

والترقي إلى ما يسعدكم "[١].

وبهذا يعلن العلامة الزمخشري أن المرء لا توجد معه علد ولادته معارف فطرية يمكن تسميتها بالأفكار أو غيرها ، كأنه يولد وعقله بمثابة الصفحة البيضاء، والآلات هي وسائل التدوين فيها ، فكان بذلك فاتحاً الباب على مصراعية لمن سيأتي بعده من المفكرين المسلمين وغيرهم.

ونفس الفكره يعرضها الإمام النسفي في معنى الآية الكريمة حيث يقول : " والله أخرجكم من بطون أمهاتكم غير عالمين شيئاً ، من حق المنعم الذي خلقكم في البطون ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة مركبة فيكم ، وما هي إلا آلات لإزالة الجهل الذي ولدتم عليه ، واجتلاب العلم والعمل به من شكر المنعم وعبادته والقيام بحقوقه[٢] .

فإذا أمكن مراجعة ما توصل إليه هذان العالمان ، أمكن القول بأن هذا التيار له وجود لدى كثير من المتدينين قديماً وحديثاً ، وآية ذلك ما ذهب إليه العلامة البروسوى المتأخر من فهم الآية الكريمة ذاتها على قريب من النحو الذي سلف حيث يقول : " والله تعالى وحده الذي أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا " حالة كونكم غير عالمين بأي شيء أصلاً من أمور الدنيا والآخرة ، وجعل لكم السمع، وقدمه في الذكر على البصر ؛ لأنه طريق تلقي الوحي[٣] ، كما أن إدراكه أقدم من إدراك البصر ، ألا

---

(١) العلامة محمود بن عمر الزمخشري ، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، ج٢ ، ص٦٢٤ ، تحقيق الشيخ مصطفى حسين أحمد ، طبعة دار الريان للتراث ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م .

(٢) الإمام العلامة أبو البركات عبدالله بن أحمد بن محمود النسفي ، تفسير النسفي ، ج١ ، ص٣١٠ ، طبعة محمد علي صبيح بالقاهرة ، ١٣٦٨هـ ـ ١٩٤٨م .

(٣) لأن الوحي إنما يتم في الأصل سماعا ، فتكون آلة السمع هي التي تقوم بذلك الدور على أتم الوجوه ، كما أن تعاليم الوحي تأتي مشافهة ، فتقوم آلة السمع بتوصيلها إلى الملكة ثم تتم الاستفادة منها على الوجوه المشروعة .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ترى أن الوليد يتأخر انفتاح عينيه عن السمع ، وجعل لكم الأبصار لكي تنال حسن العين، والأفئدة التي تفيد جملتها أنه تعالى جعل لكم هذه الأشياء آلالات تحصلون بها العلم والمعرفة ، بأن تحسوا بمشاعرة جزئيات الأشياء وتدركوها بأفئدتكم ، وتتنبهوا لما بينها بتكرر الاحساس ، فتحصل لكم علوم بديهية، تتمكنون بالنظر فيها من تحصيل العلوم الكسبية ٠ (١) .

ومن هنا يتبين أن الإنسان لا يولد بمعارف فطرية ، وإنما تكون هناك بديهيات تنموا فتنشأ عنها علوم كسبية .

وذهب فريق من المتكلمين إلى التفريق بين الأفكار الفطرية ، والمعارف البديهية بجانب الوسائل الكسبية ، وانتهوا إلى أن الفطرية تقوم في العقيدة الدينية ، أما البديهية ، والكسبية فإنهما معاً يمثلان العلم في صورته الأولية بحيث تكون البديهات هي الأساس التي تعمل عليه الآلات ، وحينئذ تتحصل المعرفة العقلية ، لا العقيدة القلبية .

يقول العلامة البغدادي الأشعري (٤٢٩هـ) .

علوم الناس ضربان : ضروري ، ومكتسب .

والفرق بينهما من جهة قدرة العالم على علمه المكتسب ، والاستدلال عليه ، ووقوع الضروري فيه من غير استدلال منه، ولا قدرة له عليه .

والعلم الضروري قسمان : أحدهما : علم بديهي ، والثاني : علم حسي ، والعلوم النظرية نوعان : عقلي ، وشرعي ، وكل واحد منهما مكتسب للعالم به، واقع له باستدلال منه عليه (٢) .

وبهذا ينتهي الأمر إلى أنه لا توجد لدى هذا الفريق معارف فطرية

---

(١) العلامة الشيخ اسماعيل حقي البروسوي ، تنوير الأذهان من تفسير روح البيان ، ج١، ص٣١٥ ، اختصار الشيخ محمد علي الصابوني ، طبعة دار الصابوني .

(٢) العلامة البغدادي (أبو منصور عبدالقاهر بن طاهر التميمي ، أصول الدين ، ص٨-٩، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يمكن تسميتها أفكارا فطرية[١] ، وكان مستندهم في ذلك هو فهم النص الـدليلي على النحو الذي سلف، وحتى يضمنوا لبعض المعارف التحصيلية اليقين ، فقد أعادوا المسألة إلى سلسلة من الترتبات التي تؤدي إلى ذات النتيجة .

ثم أضافوا طريقاً آخر يقيناً لتحصيل المعرفة، وهو النقـل المنـزل ، فكأنهما معا يسيران في اتجاه واحد ، وهو مما يعبر عن جهود التوفيقيين بـين الدين والفلسفة، يقول العلامة البغدادي " ودليل كونه ضرورياً امتنـاع وقـوع الشك في المعلوم به ، كما يمتنع ذلك في المعلوم بالحواس والبداءه "[٢] .

ومن يتابع جهود المفسرين على اختلاف اتجاهاتهم المذهبيـة فـي تفسير معنى الآية الكريمة ــ يجد أن أغلبهم يقوم على الفصل بين العقيـدة الإلهية، والمعارف العقلية ، وينتهي إلى عدم الإقرار بالأفكار الفطرية .

وعند مواجهتهم بالحديث الشريف " ما من مولود إلا يولـد علـى الفطرة " فإنما تبدوا جهودهم في تأويل الحديث ، على أن الفطرة التي يولد المرء بها هي العقيدة القلبية ، وليست المعارف الإنسانية التي لا يستدل بها على الأفكار الفطرية ، وهذا التأويل منهم يتفق مع الاتجـاه العـام الـذي يسيرون عليه .

ثانياً : رأي الفلاسفة :

ذهب جمع من الفلاسفة إلى أن الأفكار الفطرية لا وجود لها ، حيث يولد المرء خالي الذهن من كل شيء ، بل تصـوروا الـذهن بالصـفحة البيضاء التي لم يخط فيها خط ، وبناء عليه لم يرتضوا الاعتراف بوجـود الأفكار الفطرية السبقية على المعارف التحصيلية .

وكان على رأس هذا الفريق " الفلاسفة التجريبيون " ، ولذا أحـاول

---

(١) وذلك لأنهم فصلوا بين العقيدة الدينية، التي هي فطرية في النفوس ، وبين المعارف التي تكتسب عن طريق الحواس .

(٢) العلامة البغدادي ، أصول الدين ، ص١٢ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التقاط مثال يقاس به في الفلسفة الحديثة والمعاصرة على وجه الخصوص وهو " جون لوك " زعيم التجريبين .

حيث ذهب إلى أن الأفكار الفطرية لا وجود لها ، وإنما الموجود جملة من الأفكار والمعارف التحصيلية الناتجة عن الحس ، كما يقرر أن العقل الإنساني لوحة بيضاء لم يكتب عليها شيء أو كما يصفه " غرفة ما زالت خالية إلى أن يضع أحد شيئاً فيها ؛ لأنها لا تخلق فحواها"(١).

ولم يفعل لوك مثلما فعل بعض العلماء الذين فصلوا بين العقيدة الدينية والأفكار العقلية ، واعتبروا الأولى فطرية في النفوس ، والثانية كسبية تتحصل بواسطة الآلات الحسية ، وإنما ذهب إلى عدم وجود أفكار فطرية بصورة عامة، بما في ذلك العقيدة الدينية ، حيث أكد على أن وجود الله تعالى ليس فطريا في النفوس ، وإنما وجوده إنما يتم بناء على برهان ، واستدل على ذلك بقوله :

١- إن المعنى الغريزي معدوم بالمرة عند الذين يقولون انهم ملحدون ، وعند بعض القبائل المتوحشة ، وهو إن وجد عند العامة فإنه مشبع بالتشبيه ، ولا يطابق حقيقة الله .

٢- لو كان في النفس معنى غريزي عن الله(٢) لآمن بالله جميع الناس وتعقلوه كما هو "(٣) .

وإذا كان لوك قد رفض نظرية الأفكار الفطرية حتى لا يعترف

---

(١) ريتشارد شاخت ، رواد الفلسفة الحديثة ، ص١٣٠ ، ترجمة د أحمد حمدي محمود ، الهيئة المصرية العامة للكتاب .

(٢) وهذا لا يعني أن لوك أنكر وجود الله ، بل أقر بوجوده ، واستدل على وجوده بحدوث الموجودات ، وذلك لأنها تستلزم موجوداً سرمدياً كلي القدرة وعاقلاً من حيث أنه خلق في العقل ، وخالق المادة من حيث إنه خلق نفسي .

(٣) الاستاذ يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة الحديثة ، ص١٤٩ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وجود الله تعالى عن طريقها ، فعلى أي أساس أقام المعرفة الإنسانية؟

والإجابة على هذا التساؤل تتضمن شقين :

الأول : أدلته في رفض الأفكار الفطرية .

الثاني : أدلته في كيفية تحصيل المعارف الإنسانية .

أما الأول : المتعلق برفض نظرية الأفكار الفطرية ، فيمكن تلخيص أدلته التي أمكن الوقوف عليها من خلال ما ذكره الباحثون فيما يلي :

١- انعدام الأفكار الفطرية في الأطفال :

إذ لو كانت هناك أفكار فطرية ، للزم أن تكون موجودة لدى الأطفال على التساوي عند مولدهم ، وليس الأمر كذلك بدليل : انهم يكتسبونها عن طريق التعليم .

ويوضح لوك هذا بقوله: "باستطاعة أي إنسان أن يدرك كيف تظهر الأفكار في عقول هؤلاء الأطفال تدريجياً ، وأنها لا تستطيع أن تنموا إلى أبعد مما هو مستمد من التجربة، وما زودتها به من بينات اعترضت سبيلها"(١).

كما يقول أن البالغين منهم من لا يعرف شيئاً عن قوانين الفكر(٢).

٢- قصور النفس الإنسانية حيث يقرر أنه لو كانت هناك أفكار فطرية لما كانت موجودة في النفس بالفعل حتى ولو أمكن وجودها بالقوة ، وهذا في حد ذاته ينسحب على جميع التصورات ، ولو سلم بوجود أفكار فطرية لأمكن التسليم بقدرة النفس على الإتيان بمثلها ، وهذا ما لم يحدث ، فثبت أن القول بوجود أفكار فطرية مسألة غير مقبولة من الناحية العلمية(٣).

---

(١) ريتشارد شاخت ، رواد الفلسفة الحديثة ، ص١٢٩، ترجمة د أحمد حمدي محمود .

(٢) راجع للدكتور/محمود حمدي زقزوق ، دراسات في الفلسفة الحديثة ، ص١٦٩ ، الطبعة الثالثة ١٤١٤هـ ١٩٩٣م ، دار الفكر العربي .

(٣) راجع الأستاذ / يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة الحديثة ، ص١٤٥ ، وللدكتور محمود حمدي زقزوق ، دراسات في الفلسفة الحديثة ، ص١٦٩.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٣- انطلاق الإجماع ومعناه ، أنه لو كانت هناك أفكار فطرية ، لاشترك فيها الجميع ، وبخاصة ما يتعلق بالحقائق العامة المجردة، مع أن الفحص والدراسات التي تمت في العالم الإنساني تبين منها أن الكثيرين من بني البشر لا يعلمون شيئاً عن الحقائق العامة المجردة ، بل هناك قبائل من البشر وبخاصة المتوحشة لا تعلم شيئاً عن الأفكار الفطرية ، وبالتالي لم تعد فكرة القول بأفكار فطرية محل عناية من الدارسين (١).

٤- تناقض المبادئ الأخلاقية واختلافها ، بمعنى أنه لو كان الضمير الإنساني دليلاً على وجود مبادئ فطرية ، لكانت هناك مبادئ فطرية مختلفة متعارضة من حيث إن كلا يصدر في فعله عن مبدأ ، أليس المتوحشون يقترفون الكبائر ولا يبكتهم ضميرهم ، وهذا إن دل على شيء يدل على أن المبادئ الأخلاقية مكتسبة نتقبلها من بيئتنا ونألفها فتبدوا فطرية (٢) .

أما الإجابة عن النقطة الثانية وهي أدلته في كيفية تحصيل المعارف الإنسانية :

فإن رفض " جون لوك " للأفكار الفطرية لا يعني إنكاره المعرفة الإنسانية ، ولكنه أجاب عن كيفية تزويد العقل بهذه المعرفة فيقول : " إن إجابتي تتلخص في كلمة واحده .. من التجربة ، وفوق هذا الأساس تتسلم معرفتنا برمتها ، ومنها تستمد كيانها في نهاية الأمر " (٣) .

وهذا دليل على رجوعه إلى التجربة، وتأكيده على المصدر الحسي، وليلا

---

(١) وقد رفض كوزان هذه الأدلة التي قال بها " لوك" وأكد على أن الطريقة التي اتبعها ليست علمية ، ولا قامت على الثقة واليقين ؛ لأن العينة التي استشهد بها في القبائل المتوحشة والأطفال لا يمكن اعتبارهم مصادر معلومات دقيقة . ، راجع للدكتور / محمود حمدي زقزوق ، دراسات في الفلسفة الحديثة ، ص١٧٠ .

(٢) راجع الأستاذ يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة الحديثة ، ص١٤٥ .

(٣) ريتشارد شاخت ، رواد الفلسفة الحديثة ، ص١٣١ ، ترجمة أحمد حمدي محمود .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المطلق بأن المعارف الإنسانية يجب أن تكون محددة في عدد من الأفكار البسيطة أو التي يتركب منها ، بناء على أن العقل الإنساني يستطيع إدراك مفاهيم تتعلق بالأعراض والجواهر ، والإضافات أو العلاقات التي هي بمثابة المفاهيم الذهنية التي تربط بين طرفين ، فتكون الدائرة بأنها قد استوت طرفاها .

ويؤكد " لوك " أن الإحساس والتأمل هما مصدر المعرفة الإنسانية ، وأن ما تشتمل عليه العقول يجب أن يرتد إلى ذات المسألة ، فالإنسان يلاحظ الأشياء الخارجية المحسوسة ، فيكون انطباعات حسية عنها ، وهذه هي الطريقة الأولى في المعرفة ، ثم يحاول تأمل تلك الأفكار في عقله من خلال ملاحظتها سلفا التأمل ، وبالتالي تتزود عقولنا بكل ما يثيرها على التفكير .

ويبين " لوك " كيفية ذلك بقوله : " تسمح الحواس أولاً لبعض الأفكار بالدخول ، فتتأثث الغرفة التي كانت ما تزال خالية، ويألف العقل تدريجياً بعضها أكثر فأكثر ، فتختزن في الذاكرة مع أسمائها ، بهذه الطريقة يزود العقل بالأفكار واللغة ، أي المواد التي يطبق عليها ملكته القياسية ، ويبرز استعمال العقل أكثر فأكثر يوميا كلما ازدادت هذه المواد التي تهيئ له شغلا "[1] .

وبذلك تعتبر الموضوعات الخارجية ، وعملية التأمل الباطني هما مصدر المعرفة الصحيحة عند لوك ولا طريق للمعرفة غيرهما .

ويؤكد ذلك بقوله : " إن هذين الشيئين : الأشياء المادية الخارجية بوصفها موضوعات الإحساس ، والعمليات التي يقوم بها العقل داخلنا بوصفها موضوعات التأمل ، في نظري الأصلان اللذان انبعثت منهما جميع أفكارنا في بدايتها ، وليس هناك أي شيء في عقولنا لم يأت عن طريق أحد هذين السبيلين "[2] .

---

(١) جون هرمان راندال (الابن) جوستاس بوخلر ، مدخل إلى الفلسفة ، ص٩٠ ، ترجمة الدكتور ملحم قربان ، دار العلم للملايين ، مطبعة سميا ، بيروت لبنان .

(٢) ريتشارد شاخت ، رواد الفلسفة الحديثة ، ص١٣٢ ، ترجمة د أحمد حمدي محمود .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وبناء عليه يكون " لوك " ، والذين يمثلون الاتجاه الحسي التجريبي من منكري وجود أفكار فطرية لها قدرة على صياغة أو استنتاج معرفة إنسانية ويقص " كولبه " هذه المسألة بقوله : " إن لوك أنكر وجود الأفكار والمبادئ الفطرية في ميدان العلم النظري ، وفي ميدان الأوامر الأخلاقية العملية على السواء ، فكان انكاره هذا بمثابة إعلان صريح منه بإنكار كفاية العقل المحض، وعجزه عن الوصول إلى أي علم يقيني بطريق الفطرة (١).

وبعيداً عن قسوة " كولبه " على " لوك " فإن الذي يعنينا هو أنه لم يعتد بالأفكار الفطرية ، ولم يعلق على وجودها أدنى أهمية معرفية .

أما هيوم فقد سار على ذات المنهج، ونظر للميتافيزيقا نظره تتفق مع طريقته ، لا مع ما هو مقرر في الأفهام .

وفي موقفه من الأفكار الفطرية رجع بها إلى الآلية حيث قرر : " أن كل الأعمال العقلية ترجع إلى ترابط آلي يبدو في جميع الظواهر النفسية ومرجع هذا الترابط بين الأفكار إنما مرده قانون تداعي المعاني (٢) ، وبهذا فسر المبادئ المسلمة التي ظن العقليون أنها فطرية ، وعامة تصدق في كل زمان ومكان (٣) .

وإذا كان " هيوم " قد ألغى من حسبانه الأفكار الفطرية ، فإنه في نفس الوقت لم يجعل للأعمال الذهنية قيمة ذاتية، وإنما ربطها "بالظواهر النفسية(٤)

---

(١) أزفولد كولبه ، المدخل إلى الفلسفة ، ص٢٧١ ، نقله إلى العربية د أبو العلا عفيفي، الطبعة الرابعة ، لجنة التأليف والترجمة ١٩٦١م .

(٢) صور هذا القانون تكون بالتشابه أو التجاور في الزمان أو المكان ، أو تكون بالعلاقة العلية التي ترتبط فيها العلة بالمعلول ارتباطاً أولياً.

(٣) الدكتور توفيق الطويل ، أسس الفلسفة ، ص٣٥٢ .

(٤) تجريد الأفكار الذهنية من خواصها الذاتية هو نفسه اعتراف بوجود معرفة مجردة لا تقوم على جوانب حسية ، وإلا فمن أين جاء لها التجريد .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في "رباط أي (١)" لا يمكن أن ينفصلا حتى لكأن الظواهر النفسية هي ذاتها
الأعمال العقلية، وهو ما يؤكد وقوع الخلط في ذهنه قبل أن تلمسه أرض
الواقع بدليل : أنه نظر إلى قانون تداعي المعاني نفس النظرة التي اعتبرها
قانون العلية(٢) من حيث انهما مجرد عادة ذهنية متصديا لنتائج العقليين
التي أكدوا فيها أن هذه القوانين العقلية فطرية في الناس جميعاً .

ويقرر "برتراندرسل ذات النتيجة" بقوله : " إن معالجة هيوم ليست
سفه كل الاتساق ، ذلك لأن الترابط ذاته يوصف بأنه ناشئ عن العلية ،
ي حين أن العلية هنا تفسر من خلال الترابط ، ومع ذلك فإن مبدأ الترابط
حيث هو تفسير لطريقة تولد العادات الذهنية ، أداة مفيدة للتفسير
كولوجي " ! زال لها تأثيرها الهام .

أما بالنسبة إلى هيوم ذاته فليس من حقه في الواقع الكلام عن
ت أو استعدادات ذهنية ، أو على الأقل ليس من حقه الكلام على
ها ، وذلك لأنه في اللحظات التي كان فيها يلتزم الدقة الكاملة فإنه كان
الذهن بأنه مجرد تعاقب للإدراكات ، وهكذا لا يوجد شيء يمكنه
عادات"(٣).

كما أنكر "هيوم" وجود أية معرفة أولية مجرده ؛ لأنه يقرر أن
التجربة أساس لكل معرفة أولية ، فإذا لم توجد تجربة فلا معرفة

الآلي يعني في نظره شعورنا بحدوث اقتران دائم بين الحدثين المترابطين من أثر العاده
: " إن هذا الارتباط الذي نشعر به في العقل ، وهذا الانتقال المألوف الذي يقوم به
من شيء ما ، إلى ما يصحب هذا الشيء عادة ، هو الشعور أو التأثير الذي يساعدنا
ين فكرة القوة أو الأرتباط الضروري ، وليس هناك تفسير أبعد لذلك " راجع ريتشارد
رواد الفلسفة الحديثة ، ص٢٢٦ ، ترجمة د أحمد حمدي محمود .

نون تداعي المعاني أمر مجرد لا يقوم على التجربة الحسية ، وفي نفس الوقت
ن العليه تجريبيا لا يقوم إلا في الحس عنده .

ل ، حكمة الغرب ، جـ٢ ، ص١٣٨ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مهما كانت التسمية التي تقف خلفها فيقول : " إن أي قدر واهن من الفلسفة يعرفنا عدم إمكان استحضار عقولنا لأي شيء خلاف الصور والمدركات ، وأن الحواس هي المنافذ الوحيدة التي تدخل منها هذه الأفكار "(١).

وبذلك قصر هيوم وظيفة الذهن على مجرد قبول الانفعالات التي تحصل منها المعاني حصولاً آلياً بموجب قوانين التداعي .

أجل يمكن الالتفات إلى أقوال هيوم إذا كان يراد وضع منهج للتعليم، على أساس أن المبتدأ يحتاج هذه الوسائل ، فإذا تمكن منها استطاع الاستفادة بها على الوجوه الممكنة ، أما إذا أراد أن يقرر بها طبيعة العلاقة بين العقل والفطرة ، فإن محاولته لن تكون مقبولة من ذوي العلم حتى وإن قبلت لديه ، أو أعلن انتصارها أتباعه ، وذلك لأن الوضعية المنطقية انكروا وجود أية معرفة سابقة على التجربة ، مع أن لفظ التجربة قد يتمثل في الحسيات والمنطقيات والحدسيات أيضاً ، من الجوانب المختلفة ، وفي هذا إعلان بأن ما ذهب إليه هيوم غير مقبول لدى هؤلاء .

لقد حاول هيوم تفسير الآراء التي نقلها وشرح القوانين التي اعتد بها لكن كولبه استطاع أن يقف منه موقفاً آخر ويوجه له من النقد الكثير فيقول : " إن هيوم فسر الضرورة في قانون العلة والمعلول بقوله إذا كانت إحدى عمليات العقل تستدعي دائماً عملية أخرى نتبعها بدون تخلف فإنه بمضي الزمن تنمو بين العمليتين رابطة قوية دائمة هي التي نسميها " رابطة تداعي المعاني" ، ويصحب هذا التداعي نوع من الإلزام العقلي ، وهذا الإلزام العقلي أساس ما نسميه بالضرورة التي ندركها في الرابطة بين العلة والمعلول "(٢).

وإذا كان هيوم قد حاول تقديم شروح أو تفسيرات لمفهوم الضرورة

---

(١) ريتشارد شاخت ، رواد الفلسفة الحديثة ، ص٢١٦ ، ترجمة د أحمد حمدي محمود .
(٢) أزفلدكولبه ، المدخل إلى الفلسفة ، ص٢٧٥ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أو قانون العلة والمعلول ، فقد أقر من تلقاء نفسه بأن هذه الشروح ليست من ذات القانون ، وليست بعيدة عنه أيضاً ، وفي هذا إقرار بوجود المجردات التي حاول الفرار من الاعتراف بها ، وإقرار آخر بوجود علاقات بين الأفكار الفطرية، والمعرفة الإنسانية لم يتمكن من الافصاح عنها .

وبالرغم من أن منكري وجود الأفكار الفطرية قد استندوا إلى أدلة وظواهر نقلية ، ثم أكدوا وجود موانع عقلية ، فإنهم حاولوا الركون للواقع حتى يشهد لهم ، وهم في كل الحالات لم يكونوا على وفاق مع الفكرة التي حاولوا تأكيدها والتمسك بها ، وذلك لما يلي :

أولاً : أن المتدينين حينما أنكروا وجود أفكار فطرية، كانوا يريدون إقامة حاجز كبير بين العقيدة الإيمانية القلبية ، وبين المعرفة الإنسانية الكسبية ، فلما انتهوا من بنائه حاولوا إعادة النظر فيه فلم تسعفهم ملكاتهم ، وآثروا الصمت المفيد عن الصراخ غير المجدي .

ثانياً : أن الفلاسفة الذين رفضوا قبول الأفكار الفطرية جاءت أدلتهم احتمالية، والقاعدة أن الاحتماليات لا يقوم عليها قانون ، نظراً لطبيعتها وخصائصها[1] .

وفي نفس الوقت فإنها تعطي فرصاً متكافئة لكل وجه محتمل ، وهو مما يؤكد فطرية الأفكار والتشديد على ضرورة الالتفات إليها في ثقة تامة واحترام .

ثالثاً : أن منكري الأفكار الفطرية وبخاصة الفلاسفة ، حاولوا إيجاد بدائل ، "كتداعي المعاني" وغيرها ، ولكنهم أثبتوا المجردات العقلية، وأعادوا

---

(١) طبيعة الاحتمال أنه يقبل الأوجه المتعددة ، ولا يقع بينها تعارض ، أما موضوعها فيتعدد بمقدار العدد الذي تحويه ، ولا يترتب عليها علم صحيح .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كل مجرد إلى قانون الفطرة ، فكانت هذه الإعادة بمثابة إعلان صريح على تناقضهم ، واعتراف منهم بأنهم فشلوا في تصدير أفكارهم إلى الآخر ، فمثلاً " لوك " عندما يتحدث عن العقل والمادة والنفس السرمدية يقول " أن عقلنا يجهل الكنه، ولا يدرك سوى الظواهر ، فهو يعود إلى فطرة العقل برغمه ، ودون أن يشعر " (١) .

رابعاً : الرغبة الاندفاعية التي سيطرت على منكري الأفكار الفطرية ، وبخاصة في الغرب الذي أعلن أصحابه ضرورة تصفية حساباتهم مع الفلسفة مهما كانت النتائج .

خامساً : أن البدائل التي سعى منكرو الأفكار الفطرية إليها، كانت تتسم بالعنف الأدبي، بدليل أنها قفزت إلى هامات رؤوس الآخرين من كل ناحية ، وقد ترتب على ذلك فقدان الكثير من أدوات البحث العلمي ، وفقدان كل من الحيدة والموضوعية .

سادساً : أن العقل الإنساني هو من أنعم الله الذي طبع فيه ملامح قدرته ، ولذلك نجد أن منكري الأفكار الفطرية من المتدينين قد فصلوا بين العقيدة القلبية التي يولد المرء مطبوعاً عليها ، وتسمى عقيدة قلبية ، وبين المعارف التي تتمثل في مجموعة أفكار عقلية ، وتسمى معارف إنسانية .

❁❁❁

---

(١) الأستاذ يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة الحديثة ، ص١٤٩ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الخاتمـــــة

لا شك في أن الخاتمة لأي بحث تمثل قيمة ذات أهميـة إيجابيـة ، نظراً لما تحتويه من نتائج بحثية بجانب التلخيص لما أمكن الوقوف عليـه من مادة علمية داخل إطار البحث نفسه .

وإعمالاً لهذه القاعدة فإني سأحاول تقديم ما يلي، بحيث يشمل النتائج الختامية على النواحي التالية :

١- أن المركب التوصيفي ــ الأفكار الفطرية ــ قد جاء طرفاه في القرآن الكريم على نواحٍ مختلفة ، بحيث إذا ضم كل من ناتج الطرفين كانت النتيجة ضرورة التأكيد على وجود هذا المصطلح في القرآن الكريم ، ومن ثم تعددت جهود مفكري المسلمين بشأنه .

٢- أن الأفكار الفطرية قد تطلق عليها من ناحية التسمية إطلاقات متعددة ، كالمعاني الفطرية مثلاً أو العقل الصريح ، وهذا في حد ذاته كفيل بدفع الباحثين لإعادة النظر في هذه المسألة ، بغية الوصول إلـى أهـداف كالتي أمكنني الوقوف عليها .

٣- أن هذا المصطلح ــ الأفكار الفطرية ــ سواء أتمت دراسته تحت اسم نظرية الأفكار أم مسألة الأفكار ، أم مبحث الأفكار فإنها لا تعـدوا أن تكون مجرد استعمالات لغوية ، غلبت لدى أصحابها علـى مصـطلح بعينه، ولا مشاحة في الاصطلاح .

٤- أن الأفكار الفطرية لها تعريف وطبيعة وموضوع ، وهذا مما يجعلهـا متميزة عن غيرها حتى ولو وقعت المقاسمة فـي صـدر المصـطلح كالأفكار المكتسبة مثلاً ، أو الأفكار الجمعية ؛ فإنها جميعاً قد يقع لهـا اشتراك في صدر المصطلح ، وهو كلمـة الأفكـار ، لكـن عجـزه (الفطرية) هو الذي يكشف الفرق ، ومن ثم كان التنبيه إلى هذه المسألة أمراً ضرورياً .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٥- أن مثبتي الأفكار الفطرية من المتدينين، قد فهموا الإشارات النقلية بما يتفق مع توجهاتهم الفكرية وعقيدتهم الدينية .

٦- أن هناك من ذهب إلى اعتبارها سابقة على خلق الإنسان .

٧- وهناك من تبنى كون الأفكار الفطرية ، تلمو مع الإنسان في رحم أمه، ولهم على ذلك أدلة.

٨- وجود فريق من المثبتين على الجهة النقلية، يقر بأن الأفكار الفطرية ترد على المرء بعد الولادة .

٩- وجود فوارق دقيقة لدى المثبتين على الناحية الدينية ، بين العقيدة ، وبين الأفكار ، وكانت هذه الفوارق بمثابة الجبال الشم الفاصلة بين عمل القلب وعمل العقل .

١٠- أن مثبتي الأفكار الفطرية قد ساروا في اتجاهين أحدهما : اتجاه أمكن تلمسه من نور الوحي على سبيل الأصل لا التبع ، ويبدو هذا لدى المفسرين والمحدثين ، ومتكلمي المسلمين ، بينما الاتجاه الثاني ، قد غلب عليه ركوب العقل في الاتجاه الذي مال إليه ، وكأنه إنما يستمد زخيرته من الماضي البعيد كالحال مع الرواقية ومن أخذ عنهم .

١١- أن منكري الأفكار الفطرية من الفريقين كانت لهم اتجاهات غير متكاملة ، إذ قام الإنكار لدى المتدينين على أن الإنسان يولد وفطرته ليس فيها سوى عقيدته الدينية ، وبالتالي فلا مكان لغير العقيدة مهما كانت التسمية ، بينما غير المتدينين قام إنكارهم للأفكار الفطرية على أساس ما يلاحظونه في أمورهم العادية، ومن هنا حكموا بأن المرء يولد وعقله كالصفحة البيضاء.

١٢- أن منكري الأفكار الفطرية من غير المتدينين كانت تبعيتهم للأخر مردها إلى الحس الذي لا يعتقد إلا في المحسوسات ، وفي نفس الوقت لما لم تكن الأفكار الفطرية من المحسوسات فقد تم رفضها من جانبهم .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

١٣- أن مسألة الأفكار الفطرية من القضايا البحثية المطروحة على ساحة الفكر الإنساني ، فمن غلب جانباً على الأخر – من الحسيين والمثاليين – قال به ، ولو تخلى عن التقليد ، لكان له في المسألة رأي آخر .

١٤- أن الدراسة التي قمت بها انتهت إلى وجود أفكار فطرية ، قد تقوم في أصولها على أجزاء العقيدة الإلهية ، وقد تكون رجع صدى للاستعدادات النفسية والعقلية حسب ما هو مدون في ثنايا تلك الدراسة.

١٥- أن الباحث ليس مطلوباً منه سوى بذل الجهد المتواصل بغية تحقيق الهدف ، ﴿ لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾[1] .

---

(١) سورة البقرة الآية : ٢٨٦

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فهرس المصادر والمراجع

١- بالقرآن الكريم وعلومه
القرآن الكريم

ابن كثير ، الإمام الجليل الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل .
٢- تفسير القرآن العظيم ، مركز الكتاب العلمي ، المكتبة القيمة

البروسوي ، العلامة الشيخ إسماعيل حقي .
٣- تنوير الأذهان من تفسير روح البيان ، اختصار محمد علي الصابوني ، طبعة دار الصابوني .

- الرازي ، الإمام فخر الدين محمد ابن العلامة ضياء الدين عمر ، المشهور بخطيب الري (٥٤٤-٦٠٤هـ) .
٤- مفاتيح الغيب ــ قدم له فضيلة الشيخ خليل محي الدين الميس ، دار الفكر للطباعة والنشر ، طبعة ١٤١٥هـ ١٩٩٥م ، بيروت ــ لبنان .

- رضا ــ الإمام السيد محمد رشيد .
٥- تفسير المنار ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب ، العدد ٤٧ .

- الزمخشري ، العلامة أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمي ، (٤٦٧ــ٥٣٨هـ) .
٦- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، تحقيق الشيخ مصطفى حسين أحمد ، طبعة دار الريان للتراث ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.
وطبعة أخرى حققها وخرج أحاديثها ، عبدالرازق المهدي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت لبنان ، الطبعة الثانية ، ١٤٢١هـ ٢٠٠١م .

- السعدي ، العلامة الشيخ عبدالرحمن بن ناصر
٧- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ، طبعة دار الحديث بالقاهرة ، الطبعة الأولى ، ٢٠٠٢م .

- عبدالجبار ، القاضي بن أحمد الهمداني الأسد آبادي المتوفى ، ٤١٥هـ
٨- متشابة القرآن ، تحقيق/ دكتور عدنان محمد زرزور ، مطبعة دار التراث سنة ١٩٦٩م .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

٩- لجنة القرآن والسنة .
المنتخب في تفسير القرآن الكريم ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ .
١٠- النسفي ، العلامة أبو البركات عبدالله بن أحمد بن محمود .
تفسير النسفي ، طبعة محمد علي صبيح ، القاهرة ، ١٣٦٨هـ ١٩٤٨م .

ثانياً: كتب السنة المطهرة .

- ابن حبان ، محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم التميمي البستي .
١١- صحيح ابن حبان - مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٤١٤هـ ١٩٩٣م ، الطبعة الثانية ، تحقيق / شعيب الأرنؤوط .
- ابن قتيبة ، عبدالله بن مسلم بن قتيبه أبو محمد الدنيوري .
١١- تاويل مختلف الحديث ، تحقيق محمد زهري النجار ، دار الجيل - بيروت ، طبعة سنة ١٣٩٣هـ ١٩٧٢م.
- البخاري ، الإمام محمد بن اسماعيل ابو عبدالله الجعفي
١٢- صحيح البخاري - تحقيق دكتور مصطفى ديب البغا - دار ابن كثير ، اليمامة ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٧ - ١٩٨٧م.
- الحاكم النيسابوري ، محمد بن عبدالله أبو عبدالله الحاكم
١٢- المستدرك على الصحيحين - تحقيق مصطفى عبدالقادر عطا - دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ، ١٤١٦هـ ١٩٩٠م .
- الطبراني ، ابو القاسم سليمان بن أحمد
١٤- المعجم الأوسط - تحقيق طارق بن عوض الله بن محمد ، عبدالمحسن بن ابراهيم الحسيني ، دار الحرمين ، القاهرة ، ١٤١٥هـ .
- العسقلاني ، الإمام أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل ، الشافعي .
١٥- فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، تحقيق محب الدين الخطيب ، دار المعرفة ، بيروت .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- محمد ناصر الدين الألباني
١٦- صحيح الأحاديث القدسية ، ما حكاه النبي عن رب البرية ، إعداد مركز تحقيق النصوص ، دار العنان للتجارة والنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ، ١٤٢٤هـ ٢٠٠٤م .

- مسلم ، الإمام مسلم بن الحجاج ابو الحسن القشيري النيسابوري
١٧- صحيح مسلم- تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء التراث، بيروت.

ثالثا : المعاجم العربية :

- التهانوي ، الشيخ علي بن علي .
١٨- كشاف اصطلاحات الفنون ــ دار صادر ، بيروت .

- الرازي ، الشيخ الإمام محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر
١٩- مختار الصحاح ، طبعة دار المعارف .

- صليبا دكتور -جميل
٢٠- المعجم الفلسفي ، الشركة العالمية للكتاب ، مكتبة المدرسة ، دار الكتاب العالمي .

- الفيروز آبادي ، مجد الدين محمد بن يعقوب ، المتوفى سنة (٨١٧هـ)
٢١- القاموس المحيط ، دار الجيل ، بيروت .

- مجمع اللغة العربية
٢٢- المعجم الوجيز ، طبعة ١٤٢٣-٢٠٠٢م .

رابعا : المصادر العامة :

- ابن باجة ــ أبو بكر محمد بن يحيى التجيبي الأندلسي ، (ت٥٣٣هـ) .
٢٣- تدبير المتوحد، تحقيق وتقديم الدكتور معن زيادة، دار الفكر، بيروت.

٢٤- رسائل فلسفية (نصوص فلسفية غير منشورة) ، دار الثقافة ، دار النشر المغربية .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ابن حزم ، العلامة علي بن احمد الأندلسي .
٢٥- الأحكام ، دار الحديث ، القاهرة ، الطبعة الأولى ، ١٤٠٤هـ .

- ابن سينا : الشيخ الرئيس الحسين ابو علي .
٢٦- الإشارات والتنبيهات (مع شرح نصير الدين الطوسي) تحقيق سليمان دونار ، دار المعارف ، الطبعة الثالثة ، سنة ١٩٨٥م .

٢٧- النجاة (في الحكمة المنطقية والطبيعية والإلهية) نقحه وقدم له الدكتور ماجد فخري ، منشورات دار الأفاق الجديدة ، بيروت . الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م .

- ابن عربي ، محي الدين
٢٨- الفتوحات المكية ، تحقيق الدكتور عثمان يحيى ، المجلس الأعلى للثقافة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م .

- ابن قيم الجوزية ، الإمام شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أبي بكر بن أيوب ، ت٧٥١هـ
٢٩- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل ، دار الحديث ، القاهرة ٢٠٠٥م.

- ابن مسكويه ، أبو علي أحمد بن محمد الخازن الرازي
٣٠- تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق ، الناشر المطبعة الوطنية ، علي رفاعه وكيل المكاتب الأهلية ، طبعة ١٢٩٨هـ .

- أمين الأستاذ/ أحمد، زكي نجيب محمود
٣١- قصة الفلسفة اليونانية ، الطبعة التاسعة ، مكتبة النهضة المصرية ، طبعة سنة١٩٨١م.

- فائق ، الدكتور أحمد
٣٢- مدخل إلى علم النفس ، مكتبة الأنجلو المصرية ، المطبعة الفنية الحديثة ، ١٩٦٦م .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- أفلاطون ، الفيلسوف
٣٣- الأصول الأفلاطونية (فيدون) ترجمة الدكتور نجيب بلدي ، الدكتور/علي سامي النشار ، عباس الشربيني ، الطبعة الأولى ، دار المعارف ، سنة ١٩٦١م .

٣٤- محاورات أفلاطون (محاورة فيدون) ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٤٥م .

- أندريه كرسون
٣٥- الأخلاق في الفلسفة الحديثة (القسم الثاني) من المشكلة الأخلاقية والفلاسفة ، ترجمة الدكتور عبدالحليم محمود ، الأستاذ أبو بكر ذكري ، دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٣٦٨هـ ١٩٤٨م .

- الباجوري ، العلامة شيخ الإسلام الإمام برهان الدين إبراهيم ، ١١٩٨-١٢٧٦هـ

٣٦- حاشية الشيخ إبراهيم الباجوري على متن السلم في فن المنطق ، للإمام الأخضري وبهامشها متن السلم المذكور ، وتقرير المحقق العلامة الشيخ محمد الانبابي ، الطبعة الأولى ، المطبعة العامرة ، المليجية سنة ١٣٢٤هـ .

- برتراندرسل
٣٧- تاريخ الفلسفة الغربية (الكتاب الثالث) الفلسفة الحديثة ، ترجمة الدكتور محمد فتحي الشنيطي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧م .

٣٨- حكمة الغرب ، الفلسفة الحديثة والمعاصرة ، ترجمة دكتور فؤاد زكريا ، سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب الكويت سنة ١٩٨٣م .

- البغدادي ، العلامة الإمام أبو منصور عبدالقاهر بن طاهر التميمي المتوفى سنة٤٢٩هـ .

٣٩- أصول الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، الطبعة الثالثة ١٤٠١هـ١٩٨١م .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- زواوي الطويل ، الدكتور
٤٠- أسس الفلسفة ، دار النهضة العربية ، الطبعة السابعة ١٩٧٩م .
٤١- مذهب المنفعة العامة في فلسفة الأخلاق ، مكتبة النهضة المصرية ، الطبعة الأولى ١٩٥٣ ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .
- الجرجاني ، العلامة السيد الشريف علي بن محمد بن علي السيد الزين أبي الحسن الحسيني الحنفي ، ٧٤٠-٨١٦هـ
٤٢- التعريفات ، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ، ١٣٥٧هـ ١٩٣٨م .
٤٣- شرح المواقف ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ ١٩٩٨م.
- حلمي ، الدكتور محمد مصطفى
٤٤- ابن الفارض والحب والإلهي ، دار المعارف بمصر ، طبعة ١٩٧١م.
- ديكارت ، رينيه
٤٥- التأملات ، ترجمة الدكتور عثمان أمين ، سلسلة نفائس الفلسفة الغربية رقم٣ ، طبعة مكتبة القاهرة ، ١٩٥٦م .
٤٦- مقال عن المنهج ، ترجمة محمود محمد الخضيري ، مراجعة وتقديم الدكتور محمد مصطفى حلمي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الثالثة ، ١٩٨٥م .
- الرازي ، العلامة أبو بكر عبدالله بن شاهاور
٤٧- منارات السائرين ومقامات الطائرين ، تحقيق وتقديم سعيد عبدالفتاح ، طبعة دار سعاد الصباح ، الأولى ١٩٩٣م ، الكويت .
- الرازي ، فخر الدين محمد بن عمر الخطيب
٤٨- معالم أصول الدين ، مراجعة وتقديم طه عبدالرؤوف سعد ، مكتبة الكليات الأزهرية .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- راندل ، جون هرمان (الابن) ، جوستاس بوخلر
٤٩- مدخل إلى الفلسفة ، ترجمة الدكتور ملحم قربان ، دار العلم للملايين ، مطبعة سميا ، بيروت ، لبنان .

- الرزستاخي ، الشيخ خميس بن سعيد بن علي بن مسعود
٥٠- منهج الطالبين وبلاغ الراغبين ، تحقيق سالم بن حمد بن سليمان الحارسي ، طبعة عيسى الحلبي ، توزيع سلطنة عمان ، وزارة التراث القومي والثقافة ، ١٤٠٠هـ ١٩٧٩م .

- ريشارد شاخت
٥١- رواد الفلسفة الحديثة ، ترجمة دكتور أحمد حمدي محمود ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٣م .

- زقزوق ، الدكتور محمود حمدي
٥٢- دراسات في الفلسفة الحديثة ، دار الفكر العربي ، الطبعة الثالثة ، ١٤١٤هـ ، ١٩٩٣م.

- سد جويك
٥٣- المجمل في تاريخ علم الأخلاق ، ترجمة الدكتور توفيق الطويل ، عبدالحميد حمدي ، الطبعة الأولى ١٩٤٩م ، الناشر دار نشر الثقافة بالاسكندرية.

- سرور ، الأستاذ طه عبدالباقي
٥٤- شخصيات صوفية ، الطبعة الأولى ١٣٦٨هـ ١٩٤٨م ، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر .

- طيرة ، دكتور عبدالفتاح
٥٥- خلق الإنسان (دراسة علمية قرآنية) الهيئة المصرية العامة للكتاب طبعة سنة١٩٩٦م.

- عبدالفضيل ، دكتور محمد
٥٦- الفلسفة الإشراقية عند صدرالدين الشيرازي ، رسالة دكتوراه بكلية

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أصول الدين ، القاهرة ، ١٩٧٥م .

- أمين ، الدكتور عثمان
٥٧- الفلسفة ، الرواقية ، مطبعة النهضة المصرية .

- الغزالي ، الإمام أبو حامد محمد بن محمد المتوفي ٥٠٥هـ
٥٨- إحياء علوم الدين ، قدم له الأستاذ عامر النجار ، تحقيق / محمد عبدالملك الزغبي ، دار المنار ، طبعة سنة ١٩٩٧م .

٥٩- مجموعة رسائل الإمام الغزالي ، طبعة منقحه ومصححه ، إبراهيم أمين محمد ، المكتبة التوفيقية .

- الفارابي ، أبو نصر
٦٠- تحصيل السعادة ، حققه وقدم له دكتور جعفر آل ياسين ، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م .

٦١- فصول منتزعه ، تحقيق دكتور فوزي متري نجار ، الطبعة الثانية ، دار المشرق ، بيروت ، لبنان .

- القاضي عياض ، أبو الفضل
٦٢- مشارق الأنوار ، المكتبة العتيقة .

- القويسني ، الشيخ
٦٣- شرخ القويسني على متن السلم في المنطق ، طبعة الحلبي ١٩٥٩م .

- الكاشاني ، العلامة المحقق الشيخ عبدالرازق
٦٤- شرح ديوان ابن الفارض ، لجامعه الفاضل رشيد بن غالب من شرحي الشيخ حسن البوريني النابلسي، وبهامشه كشف الوجوه الغر لمعاني نظم الدر ، شرح تائية ابن الفارض الكبرى المشتهرة بنظم السلوك ، المطبعة الأزهرية المصرية ، سنة١٣١٩هـ .

- كنت ، عمانويل
٦٥- مقدمة لكل ميتافيزيقا مقبلة يمكن أن تصير علما ، ترجمة الدكتوره

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نازلي اسماعيل حسين ، مراجعة الدكتور عبدالرحمن بدوي ، دار الكتاب العربي للطباعة ، والنشر ١٣٨٧هـ ١٩٦٧م.

٦٦- نقد العقل المجرد ، ترجمة أحمد الشيباني ، دار اليقظة العربية للتأليف والنشر ، بيروت ١٩٦٥م .

كولبه ، أزفولد

٦٧- المدخل إلى الفلسفة ، نقله إلى العربية وعلق عليه الدكتور أبو العلا عفيفي ، الطبعة الرابعة ، لجنة التأليف والترجمة ، ١٩٦١م .

ليبنتز ، جوتفريد فيلهلم

٦٨- المونادلوجيا " والمبادئ العقلية للطبيعة والفضل الإلهي " ، نقلها إلى العربية وعلق عليها ، دكتور عبدالغفار مكاوي ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٧٨م .

مقداد ، يالجن

٧٠- الاتجاه الأخلاقي في الإسلام (دراسة مقارنة) الطبعة الأولى ، ١٣٩٢-١٩٧٣م ، الناشر مكتبة الخانجي بمصر .

يوسف كرم ، الأستاذ

٧١- تاريخ الفلسفة الحديثة ، دار المعارف بمصر ، الطبعة السادسة ١٩٧٩م .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner